رفاعي سرور

عَلامَاتُ السَّاعَةِ

دراسة تحليلية



علامات الساعة دِرَاسَة تَحليلية

رفاعِي سرُور

تمهيد

من أخطر ظواهر التاريخ، ظاهرة التأصيل الكوني للدعوات والمذاهب لأنه إثبات للعلاقة بين الدعوة أو المذهب وبين النظام الكوني.

هذا التأصيل الذي يحاول به أصحاب أي دعوة إثبات صحة دعوتهم، وغالباً ما يكون التأصيل في اتجاهين، الماضي (الجذور) والمستقبل (الامتداد). ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك هذه الزبالة الزائلة التي كانت تسمى (الشيوعية) والتي كان أصحابها يعتبرونها بداية التاريخ وختامه. فكانوا يمثلون التاريخ أربع مراحل: الشيوعية الأولى. الرق. الإقطاع، والرأسمالية. الشيوعية الثانية. وكانوا يضربون لذلك مثلاً وهو الماء الذي يمثل الشيوعية الأولى. ثم يتعرض الماء للحرارة حتى البخر ليكون التبخر هو الرق، ثم يتعرض البخار للبرودة فيتكثف ليكون الكثف هو الإقطاع والرأسمالية التي يعود بعدها إلى الماء ليكون الماء هو الشيوعية الثانية.

وهذه هي محاولة التأصيل الكوني للمذهب المعدوم، ويشاء الله العلي القدير أن تتبخر النظرية كلها بكل عصاراتها المنتنة. ويبقى نوع آخر من الدعوات التي تحاول هذه المحاولات وهي المنتسبة للرسالات السماوية، إما اليهودية أو النصرانية. وهذا النوع لا يقل خطراً عن الدعوات المادية (مثل الشيوعية).وخطورة هذه الدعوات السماوية تحدث من خلال قضية علامات الساعة، لأن أصحاب هذه الدعوات ينحرفون بالجذور الصحيحة للرسالة السماوية ليصلوا بهذا الانحراف إلى الامتداد المستقبلي المحرف هو الآخر.

وبينما يحاول اليهود والنصارى جهدهم في تحريف قضية العلامات، يفاجئون بإحياء التصور الإسلامي للقضية بصورة كاملة، باعتبار أن العلامات تمثل جزءً أصيلاً ضخماً من تاريخ الأمة الإسلامية الباقية إلى آخر الزمان، متضمنة ظهور العلامات.

وهنا تأخذ المواجهة صورة أخرى وهو إخفاء ما عندهم من علم عن العلامات عن العقل المسلم بالذات حتى لا ينتبه هذا العقل إلى فاعلية تلك القضية في تحديد منهج الصراع معهم. ولكن محاولة الإخفاء اليهودية والنصرانية للعلامات لم تكن محاولة سهلة، فقدر الله كشف هذا الخفاء ليظهر مدى المكر والكيد المبذول في تلك المحاولة. وقد أراد الله سبحانه كشف هذا الخفاء من خلال عدة أسباب مقدرة. وكان أولها: المعلومات المكشوفة على لسان اليهود والنصارى الذين أسلموا.

مثلما أخرج الخطيب في الرواية عن مالك أن عمر دخل على أم كلثوم بنت علي فوجدها تبكي فقال: ما يبكيك ؟ قالت: هذا اليهودي – لكعب الأحبار – يقول إنك باب من أبواب جهنم، فقال عمر: ما شاء الله. ثم خرج فأرسل إلى كعب فجاءه فقال: يا أمير المؤمنين والذي نفسي بيده لا ينسلخ ذو الحجة حتى تدخل الجنة، فقال: ما هذا، مرة في الجنة ومرة في النار ؟ فقال: إنا لنجدك في كتاب الله على باب من أبواب جهنم تمنع الناس أن يقتحموا فيها، فإذا مت اقتحموا [1].

كما كانت هناك بعض التصرفات ذات الطبيعة العلنية الدالة على أنهم يتحركون بمقتضى تصورات خفية، مثل زراعة اليهود شجر الغرقد لأنه شجر اليهود، إذ إن جميع الشجر يدل المسلم

1- أخرجه أبو نعيم في: " حلية الأولياء " (6 / 203) مختصراً.

على اليهودي الذي يختبئ وراءه في آخر الزمان عدا هذا الشجر كما فى الحديث المتفق عليه والذى رواه ابو هريرة رضى الله عنه.

وبمجرد انكشاف أخبار العلامات عند اليهود والنصارى. نفاجأ بالدقة المتناهية التي عندهم في قضية العلامات.

فبعد موقعة أجنادين التي حارب فيها عمرو بن العاص الروم وانتصر عليهم، حاول عمرو فتح فلسطين. فكتب إليه الأرطبون بأنك صديقي ونظيري، أنت في قومك مثلي في قومي، والله لا تفتح من فلسطين شيئاً بعد أجنادين، فقال أصحاب الأرطبون: من أين علمت أنه ليس بصاحب فتح هذه البلاد ؟ فقال: صاحبها رجل اسمه على ثلاثة أحرف، فعلم عمرو بكلام الأرطبون فكتب إلى عمر يقول له: إني أعالج حرباً كؤداً صدوماً، وبلادا ادخرت لك. فعزم عمر على الدخول إلى الشام لفتح بيت المقدس [1].

وهذه هي الدقة المتناهية في تصور العلامات عند أهل الكتاب، أن يجزم الأرطبون أن بيت المقدس لن تفتح على يد عمرو.

وإنها ستنفتح على يد عمر. وقد علم الأرطبون ذلك من الاسم، والفرق بين الاسمين حرف واحد وهو الواو.

ومما جاء عن أسلم مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قدم دمشق في تجارة من قريش فتخلف عمر بن الخطاب لبعض حاجته، فبينما هو في البلد إذا ببطريق يأخذ بعنقه، فذهب ينازعه فلم يقدر عليه، فأدخله داراً فيها تراباً وفأساً ومجرفة وزنبيل، وقال له: حول هذا من ههنا إلى ههنا. فغلبه عمر وخرج فجاء ديراً لراهب، فحبس عنده من العشي فأطعمه وسقاه، وقال له: لقد علم أهل دين النصرانية أني أعلمهم بكتابهم، وإني لأراك الذي تخرجنا من بلادنا هذه، فهل لك أن تكتب لي كتاب أمان على ديري هذا [2].

وعن الأقرع مؤذن عمر أن عمر رضوان الله عليه مر على الأسقف فقال: هل تجدوني في شيء من كتبكم ؟ قال: نجد صفتكم وأعمالكم ولا نجد أسماءكم.

قال: كيف تجدوني ؟ قال: قرن من حديد. قال عمر: قرن من حديد ماذا ؟ قال: أمير شديد، قال عمر: الله أكبر والحمد لله [3].

عن عبد الله قال: ركب عمر رضوان الله عليه فرساً فركضه فانكشف ثوبه عن فخذه فرأى أهل نجران على فخذه شامة سوداء، فقالوا: هذا الذي نجد في كتابنا يخرجنا من أرضنا [4].

1- "البداية والنهاية "، المجلد السابع: ص 54 – 55.

1- "البداية والنهاية" المجلد السابع ص 60.

2- أخرجه أبو داود (4656)، واللالكائي في شرح السنة (2658). وأخرج نحوه الطبراني عن كعب وقال الهيثمي (66 / 9): رجاله ثقات.

3- أخرجه ابن سعد (3248)، والطبراني وأحمد في الزهد ص: 153، وقال الهيثمي في المجمع (91 / 9): رواه الطبراني وإسناده حسن.

وعلى الرغم من هذه الدقة المتناهية التي يبلغ مداها الفارق بين عمرو وعمر ويبلغ مداها شامة سوداء في الفخذ ؛ فقد كانت النتيجة النهائية للتصرفات اليهودية والنصرانية في وقت الغفلة الإسلامية أن أصبحت العلامات محكومة بالإسرائيليات المطروحة للتضليل.

ولعل أخطر مؤامرات التضليل التي نعاني منها الآن هي التركيز الإعلامي النصراني واليهودي على علامة الدجال [5].

والهدف من هذه المؤامرة هو تجاوز علامة المهدي، وخصوصاً بعد الانسياق وراء هذا التركيز من جانب الذين يكتبون في الإسلام أنفسهم.

ولم يكن هذا الانسياق هو الأثر الوحيد للتضليل اليهودي والنصراني عن قضية العلامات في واقع الفكر الإسلامي.

بل أصبحت تعاني تجاوز التحكم العقلي في الطبيعة الغيبية للعلامات.

كما أصبحت تفتقد العلاقة الصحيحة بين النصوص والواقع، حتى أصبح إسقاط نصوص العلامات على الواقع والأحداث خطأً شائعاً.

وذلك كله في الوقت الذي يجب أن تكون فيه لقضية العلامات الأهمية الفكرية الأساسية والأولى:

من حيث اليقين بما أخبر به الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم من أحداث حتى آخر الزمان.

ومن حيث التوازن النفسي بين الإنكار الجاهل والتعجل السفيه لهذه الأحداث.

ومن حيث إحياء نصوص الإخبار عن العلامات لتدخل في إطار التصور الإسلامي الصحيح عن الكون والوجود البشري.

وكذلك تحديد الدور البشري في إطار أقدار الله النافذة في الواقع حتى قيام الساعة.

ثم التحديد المنهجي للدعوة من خلال كل هذه الفاعليات مجتمعة.

ويمثل تحديد الدور البشري والتحديد المنهجي أهمية كبيرة باعتبار الإطار الواقعي للتحرك الإسلامي.

... وبعيداً عن التضليل اليهودي والنصراني في قضية العلامات.

وبعيداً عن دائرة الغفلة عن التصور الصحيح للقضية.

تنشأ فاعلية العلامات ؛ ليكون التصور الصحيح للعلامات حاكماً للحركة الإسلامية بكل أبعادها وفي كل مواقفها.

ولإدراك أهمية التصور الإسلامي الدقيق للعلامات وعلاقته بالأحداث بصفة خاصة، علينا أن نقف أمام مثل تاريخي على هذه الحقيقة، ألا وهو توقف المسلمين عن الزحف إلى بلاد الترك عملاً بقول رسول الله صلى الله عليه

وسلم: " اتركوا الترك ما تركوكم " الحديث.

فلما اعتدى خوارزم شاه على تجار جنكيز خان الذين يتبضعون له ثياباً

4- كما سيأتي إن شاء الله.

وتخفاً، فأرسل خوارزم إلى نائبه أن يقتلهم ففعل ذلك، ويقول ابن كثير في البداية والنهاية: (ولم يكن ما فعله خوارزم فعلاً جيداً). فلما هدد جنكيز خان السلطان خوارزم أشار من أشار على خوارزم شاه بالمسير إليهم، فسار إليهم

(وهذا أيضاً لم يكن فعلاً جيداً) ؛ لأن التتر من الأتراك[6]الذين سموا ذلك لتركه خارج سور ذي القرنين.

والخطأ في فعل خوارزم هو في الأساس مخالفته لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اتركوا الترك ما تركوكم "كما عند احمد وابو داود.

ولذلك يذكر ابن كثير في عدة مواضع عند ذكر أحداث القتال بين المسلمين والتتار أن المسلمين لم يكونوا يتعقبون التتار إذا فروا هاربين أمامهم، حتى وإن كانت تنالهم الرماح، عملاً بالحديث.. حتى نصرهم الله عليهم.

ويجمل ابن كثير الموقف فيقول في موضع آخر من البداية والنهاية: (إن أكبر المصائب والكوارث التي حلت بالأمة الإسلامية كان سببها استفزاز واستثارة التتار حتى هاجموا بلاد الإسلام ولم يقف لهم أحد، حتى قيض الله لأمة النبي صلى الله عليه وسلم من يدفع عنها هذا العدو. وهما: (قطز وبيبرس) اللذان هزموهم في موقعة (عين جالوت).

إن تحذير النبي لأمته بتجنب الترك كان أساساً لتحركها العسكري مدة طويلة، فلما تحرش المسلمون بالتتار مخالفين تحذير النبي صلى الله عليه وسلم في غفلة

منهم، جاءت العقوبة عنيفة باجتياح التتار لديار الإسلام في مشهدٍ مخيف، نرى من خلاله خطورة تحذير النبي، وعظم البلاء الذي جرته مخالفتهم للنبي صلى الله عليه وسلم..

ومن هنا تأتي أهمية استحضار الإسلام لأرض الواقع في حياة المسلمين، واستحضار أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم لنرى من خلالها علامات الساعة من خلال تصور منهجي كامل.

ومن المثل التاريخي لتحكم تصور علامات الساعة في المجال العسكري إلى المثل الحاضر لتحكم تصور علامات الساعة في المجال السياسي.

وهو النص الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ستكون خلافة على منهاج النبوة "، وهذه الخلافة قبل المهدي..

وعندما يحكم تصور العلامات المنهج السياسي للدعوة [7]فإن السعي لإقامة هذه الخلافة سيتجاوز كل عقبة يتصورها إنسان ضد إقامة هذه الخلافة.

ابتداءً من تهيئة العالم لظهور الدجال [8]، وهي المحاولة الخبيثة لمنع المسلمين من معايشة حقيقة الخلافة القادمة والتهيئة النفسية لها والسعي لإقامتها.

1- ليسوا هم تركيا الآن.

1- يراجع: التصور السياسي للحركة الإسلامية للمؤلف.

2- والمجاراة في التركيز على الدجال والمسيح المنتظر ليساهم في هذه المحاولة ومروراً بالنظام العالمي الجديد الذي يريدون به إذابة كل الأنظمة واختزالها للنموذج الأمريكي، وهنا علينا أن نعي أننا على موعد مع الخلافة..وهي في= =قلب كل مسلم ولا تنتزع إلا بموته، لأنها خبر عن رسول الله صلى اله عليه وسلم وخبر الرسول صلى الله عليه وسلم لا ينتزع إلا بالموت.

ستكون خلافة.. هكذا تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم.

وبعد تجاوز التضليل اليهودي والنصراني.

وتجاوز الغفلة عن القضية بالطرح الإسلامي الصحيح لها.

وتحكم التصور الإسلامي للقضية في واقع الدعوة.

تتكشف أجمل وأعظم ما في التصور الإسلامي لقضايا العلامات، ولعل أول ما سنلاحظه في هذا الجمال العظيم المتكثف هو:

التجرد وموضوعية التناول:

وما نعنيه بالموضوعية هو أن الإسلام لم يتحيز إلى نفسه مستقبلياً.

إن إدراك هذا الجمال لا يتم الشعور به إلا بالمقارنة بين التصور الإسلامي للعلامات وغيره من التصورات المصطنعة المكتوبة لحساب أصحابها في تحديد الرؤية المستقبلية لمصير العالم. ولعل معركة (هرمجدون) التي يتحدث عنها اهل الكتاب خير مثال على ذلك.

وملخصها عندهم: أن المسيح سينزل ويقتل كل الوثنيين (غير المسيحيين)، ويرتفع بكل المسيحيين فوق السحاب..

هكذا ينتهي التاريخ البشري..

وتنتهي الحياة الدنيا..

وتنتهي الحكمة التي من أجلها خلق الله السموات والأرض، بهذه الصورة الضئيلة الساذجة، المتحيزة..

التصور الإسلامي يقر بأن اليهود باقون إلى وقت الدجال وسيقاتلون معه، كما يقر بأن النصارى سيبقون كذلك حتى يحقق الله الغلبة للمسلمين عليهم في الملحمة.

ويكفي لإثبات جمال الموضوعية في التصور الإسلامي للعلامات أن نَصِفَ الملحمة كما وصفها الرسول عليه الصلاة والسلام:

" تصالحون الروم صلحاً آمناً وتقهرون أنتم وهم عدواً من ورائهم فتسلمون وتغنمون، ثم تنزلون بمرج ذي تلول فيقوم رجل من الروم فيرفع الصليب ويقول: غلب الصليب، فيقوم إليه رجل من المسلمين فيقتله فعند ذلك تغدر الروم، وتكون الملاحم، فيجمعون لكم فيأتونكم في ثمانين غاية مع كل غاية عشرة

ستكون خلافة.. ليست على أساس الواقع المؤلم الذي نراه بل سيكون أساساً ربانياً يصنعه الله ويصلح به الدنيا ولا تسل عن الزمن، فإن المهدي الذي سيظهر بعد الخلافة سيصلحه الله في ليلة.

ليلة.. ليلة واحدة..

وسيسبق تلك الليلة.. خلافة قادمة..

لن يصرفنا عنها تصورياً ولا عصبياً ولا نفسياً.. علامة المسيح المنتظر، التي تحاول الجاهلية بكثرة الكتابة عنها انحرافنا فيها، لأن الخلافة قبل المهدي.. والمهدي قبل المسيح.

آلاف [9]. (عدو يجمعون لأهل الإسلام ويجمع لهم أهل الإسلام، ويكون عند ذاكم القتال ردة شديدة) [10]. قال: فيشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل فيبقى هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب وتفنى الشرطة.

ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة فيقتتلون ثم يبقى هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب وتفنى الشرطة.

ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل فيبقى هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب وتفنى الشرطة.

فإذا كان اليوم الرابع نهد إليهم بقية أهل الإسلام فيجعل الله الدائرة عليهم فيقتتلون مقتلة إما قال: لا ندري مثلها، وإما قال: لا يرى مثلها،حتى إن الطائر يمر بجنباتهم فما يخلفهم حتى يخر ميتاً، فيعاد بنو الأب كانوا مائة فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد. فبأي غنيمة يفرح أو أي ميراث يقاسم ؟! قال: فبينما هم كذلك إذ سمعوا ببأس أكبر من ذلك، قال: فجاءهم الصريخ[11] أن الدجال قد خلفهم في ذراريهم فيرفضون ما في أيديهم، ويقبلون فيبعثون عشرة فوارس

طليعة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إني لأعلم أسماءهم وأسماء آبائهم وألوان خيولهم هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ " [12].

إن النص يكاد ينطق بصوت مسموع بأنه من مشكاة النبوة..

– فيه الإقرار بأن الروم سيكونون أكثر عدداً.

– وفيه الإقرار بأن المسلم قتل الصليبي الذي قال: (بهذا غلبنا)، وهو القول المناقض للهدنة التي كانت معقودة [13].

– وفيه الإقرار بأنه ستكون ردة بين المسلمين.

– والإقرار بأن القوة بين الأمتين تكاد تكون متقاربة، وقد وضح ذلك من وصف المعارك. وذلك من خلال مجموع العبارات: " فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل.. " وتكررت ثلاث مرات.

" فيبقى هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب " ثلاث مرات. وفي الرابعة.. تكون الغلبة للمسلمين على الصليبيين. ولكن وصف المعركة يبين خطورتها. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "حتى إن الطائر ليمر بجنباتهم فما يخلفهم حتى يخر ميتاً ".

أما وصف نتيجتها فهو أشد. فيعاد بنو الأب كانوا مائة فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد، فبأي غنيمة يفرح أو أي ميراث يقسم أو يقاسم كما تشعر بالدقة في النقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

مثلما قال الراوي، فيقتتلون مقتلة إما قال: لا ندري مثلها، وإما قال: لا يرى مثلها..

1– رواه أبو داود كتاب الملاحم (2 / 425)، والحاكم في المستدرك (4 / 1421) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

2– قول عبد الله بن مسعود القول عاد لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

1– المستنجد الصارخ.

2– رواه مسلم.

3–كما ورد في النصوص الأخرى.

هكذا الخبر.. والوصف والدقة.

هكذا الموضوعية والإقرار والتفصيل..

وهكذا يقبل الإنسان صيغة نهايته وأحداث آخر الزمان..

وفي أحاديث الملحمة نص يقول: " تقوم الساعة والروم أكثر الناس.. "[14].

ويسمع العبارة عمرو بن العاص.. ويتعجب.. ولكنه يصدق.. ثم يحلل العبارة بعرض لمقومات الأمة النصرانية.. والتي جعلتها باقية بهذا العدد حتى آخر الزمان وحتى الملحمة..

يقول عمرو.. لراوي الحديث: أبصر ما تقول.

قال: أقول ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال: لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالاً أربعاً:

1- " إنهم لأحكم الناس عند فتنة.

2- وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة.

3- وأوشكهم كرة بعد فرة.

4- وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف.

وخامسة حسنة جميلة:.. وأمنعهم من ظلم الملوك " [15].

وهكذا تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم..

وتحدث الصحابة في تفسير أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

تجرد وصدق..

ولعلنا نلاحظ قولة عمرو بن العاص في ذكر خصال الروم:

وخامسة حسنة جميلة..

وهذا هو الوحي وفهم الوحي وتفسير الوحي.

ولن نجد مثلاً لحقيقة التجرد والموضوعية في تفسير العلاقة بين الإنسان والكون من نفي النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يكون كسوف الشمس – الذي كان في عهده – بسبب وفاة ابنه إبراهيم.

وعلى الرغم من أن الناس قد ربطوا بين الحادثتين فقالوا: ما انكسفت الشمس إلا لموت إبراهيم.

فيقوم النبي صلى الله عليه وسلم في الناس خطيباً فيقول: يا أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد. فكان نفي النبي

صلى الله عليه وسلم أشد قوة من آية الكسوف ذاتها.

فلم يكن التجرد في تفسير العلامات كظواهر كونية غيبية، بل كان في الظواهر الكونية المشاهدة.

وهذا هو التجرد الكامل في التفسير الإسلامي للكون بظواهره المشاهدة القائمة

1- رواه مسلم من حديث الليث بن سعد –كتاب الفتن وأشراط الساعة ح (2898)، وأحمد في المسند 4/ 230.

2- أخرجه مسلم في: الفتن وأشراط الساعة (9 / 249 / ح 2898).

العلامة:

وسنبدأ الكتاب إن شاء الله بتعريف علامات الساعة، وهو التعريف الذي سيبقى معنا إلى آخر الكتاب ؛ حيث سينتظم نص هذا الكتاب حول ألفاظ هذا

التعريف.

وبادئ ذي بدء نريد أن نعرف العلامة..

فالعلامة هي: أفعال الله الجامعة في نهاية الدنيا وبداية الآخرة، تحقيقاً لإيمان الناس.

الباب الأول

الفصل الأول

أفعال الله الجامعة

تأصيل معنى العلامة

من حيث علاقتها بأفعال الله

- الحكمة
- الرحمة
- الإحسان
- الخير
- الحق
- العدل

الحكمة:

وحكمة العلامات من أهم مجالات الحكمة الإلهية.

وذلك أن أفعال الله دائرة على الحكمة.

وإن اختلاف صيغ هذه الأفعال الإلهية بحسب المراحل الثلاث لا يوقف معنى الحكمة بل يظهرها أشد ما يكون الإظهار.

وحكمة العلامات.. عامة وتفصيلية.

والحكمة العامة هي الحكمة منها.

والحكمة التفصيلية هي الحكمة فيها.

أما بالنسبة للحكمة العامة من العلامات. ففيها يقول ابن القيم:

قرأ قارئ: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير: 1]، وفى الحاضرين أبو الوفا ابن عقيل فقال له قائل: يا سيدي هب أنه سبحانه نشر الموتى للبعث والحساب، وزوج النفوس بقرنائها بالثواب والعقاب، فلم هدم الأبنية، وسير الجبال، ودك الأرض، وفطر السماء، ونثر النجوم، وكور الشمس ؟.

فقال: إنما بنى لهم الدار للسكنى و التمتع، وجعلها وجعل ما فيها للاعتبار والتفكر والاستدلال عليه: لحسن التأمل و التذكر، فلما انقضت مدة السكنى وأجلاهم من الدار خربها، لانتقال الساكن

منها، فأراد أن يعلمهم بأن الكون كان معموراً بهم، وفي إحالة الأحوال، و إظهار تلك الأهوال، وبيان القدرة بعد بيان العزة، وتكذيب لأهل الإلحاد، وزنادقة المنجمين، وعباد الكواكب

والشمس والقمر والأوثان، فيعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين. فإذا رأوا آلهتهم قد انهدمت، وأن معبوداتهم قد انتثرت وانفطرت، ومحالُّها قد شققت ؛ ظهرت فضائحهم وتبين كذبهم، وظهر أن العالم مربوب محدث مدبر، له رب يصرفه كيف يشاء [16].

أما بالنسبة للحكمة التفصيلية فإنها ستتضح من خلال طرح العلامات، وأهم أمثلتها:

- جعل التسبيح والتكبير والتحميد والتهليل بديلاً عن الطعام في سنوات ما قبل الدجال.
- وتفسير الحكمة في ذلك: هو أن الطعام ضرورة بشرية تثبت الافتقار
- إلى الله في الرزق، وقد كان هذا هو المنهج القرآني في إثبات عبودية عيسى ابن مريم عندما

قال سبحانه:(مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُون ﴾ [المائدة:75].

- في إثبات الإطعام لعيسى إثبات لبشريته ونفي الادعاء بألوهيته،
- لأن الله هو الذي: ﴿ يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ ﴾[الانعام:14]. وفي ذلك تنزيه لله عن الافتقار
- للطعام، وهو معنى التسبيح لأن التسبيح هو التنزيه.
- أما التكبير فهو إكبار الله على كل شيء، وعلى الدجال وفتنته، فالدجال أكبر خلق كما

قال النبي صلى الله عليه وسلم عن عمران بن حصين

- قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

" ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال " [17].

ولكن الخالق أكبر..

حتى عندما تقتضي فتنة الدجال هذه السنوات الثلاث من الجوع فإن الله أكبر، فلا يترك عباده المؤمنين نهباً لفتنة الدجال، بل يزيدهم إيماناً ويقيناً بإطعامهم الذكر، فيجري التسبيح والتكبير والتحميد والتهليل مجرى الطعام.

- أما التحميد:فهو دليل على أن التسبيح والتكبير أتم الشبع، فاستوجب الأمر حمداً لله كما نحمده على الإطعام في الدنيا.
- أما التهليل فهو قول: لا إله إلا الله، ومناسبتها أن جميع ما يكون لا يخرج على أفعاله. فلا إله غيره.

فالله هو الذي يظهر الدجال.

وهو الذي يجعل السنوات قبله سنوات جوع.

وهو الذي يجعل الذكر يجري مجرى الطعام لعباده المؤمنين.

1- " بدائع التفسير "ج3، ص: 183، للإمام ابن القيم.

1- أخرجه مسلم في " الفتن وأشراط الساعة " باب: في بقية من أحاديث الدجال (18،6 / 86 النووي). وأحمد (4/19-21،200،20) وابن أبي شيبة في " مصنفه " (8/648/ح17) جميعاً من طريق حميد بن هلال عن رهط منهم أبو الدهماء وأبو قتادة وهشام بن عامر الأنصاري عن عمران بن حصين.

والحقيقة أن اختيار الذكر بصفة أساسية بديلاً عن الطعام هو أن حياة الإنسان إنما تكون بأمرين: الطعام والذكر، أما الطعام فأمر معروف.

- وأما الذكر: ففيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مثل الذي يذكر الله ومثل الذي لا يذكره كالحي والميت "[18]. فالحياة بالذكر والطعام.

ومن أمثلة الحكمة التفصيلية في العلامات أيضاً ؛ جعل التهليل و التكبير سبباً في إسقاط جانبي مدينة القسطنطينية.

لأن سقوط جانبي المدينة هو الذي يساوي الانتصار على أهلها، والنصر في القتال لا يكون إلا بأمرين:

عقيدة صحيحة..

وإكبار مطلق لله على العدو في النفوس.

عن أبي هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" إني لأعلم مدينة جانب منها إلى البحر وجانب منها إلى البر فيأتيها المسلمون فيقولون: لا إله إلا الله وحده لا شريك له فيسقط جانبها الذي إلى البر فيفتحها المسلمون بالتسبيح والتكبير " [19].

وتفسير وجه اختصاص بني إسحاق – السبعين ألفاً – بتدمير مدينة القسطنطينية هو أن بني إسحاق هم عرقياً أصل اليهودية والمسيحية، ولكنهم يختلفون عن اليهودية والنصرانية في عقيدتهم عن المسيح، فعلى الرغم من التوافق العرقي بينهما، كان الاختلاف بينهما في قولهم عن عيسى بأنه ابن زنى، أو ابن الله.

وبذلك يتحقق فيهم – بمقتضى تقابلهم مع اليهود والنصارى – أحقيتهم في تدمير المدينة القائمة على العقيدة الباطلة عن عيسى.

كما قال صلى الله عليه وسلم: عن أبي هريرة رضى الله عنه، أن النبي

صلى الله عليه وسلم قال: " سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في

البحر ؟ قالوا: نعم يا رسول الله. قال: لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحاق فإذا جاءوها نزلوا فلم يُقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهم، قالوا:

لا إله إلا الله، والله أكبر فيسقط جانبها الذي في البحر، ثم يقولون الثانية: لا إله إلا الله، والله أكبر فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولون الثالثة: لا إله إلا الله، والله أكبر إذ جاءهم الصريخ فقال: إن الدجال قد خرج، فيتركون كل شيء ويرجعون [20].

2- أخرجه البخاري في " الدعوات " باب: فضل ذكر الله (11/ 212/ 6407)، ومسلم في " صلاة المسافرين " باب: استحباب صلاة النافلة في البيت (6/2 / 68. النووي).

3- ذكره صاحب كتاب " عقد الدرر في أخبار المنتظر " (ص 177). وعزاه إلى مسلم في " صحيحه " ولم أجده فيه.

1- أخرجه مسلم في "الفتن وأشراط الساعة " باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل..

(9 / 268 / 2920). و الحاكم في " مستدركه " (4 / 476).

الرحمة:

وأصل الرحمة في العلامات هو العلامات ذاتها.

ذلك لأن هذه العلامات ذكرى للبشر وتحقيق لليقين في قلوبهم، كما إنها ترجيح لصفة الخير في الوجود، ليبقى الوجود خيراً راجحاً حتى قيام الساعة.

ودلائل هذا الأصل هي بذاتها تفاصيل هذه العلامات.

فمن دلائل رحمة الله:

1- أن الساعة لا تقوم على مؤمن وهي داهية مُرة،لأن الله سيقبض كل نفس مؤمنة بريح لينة تأتي من اليمين.

أما الساعة فلا تقوم إلا على أشر الناس[21] ؛ عن علي بن أبي طالب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد، والذين يشهدون بالشهادة قبل أن يسألوها "[22].

2- ومن دلائل هذه الرحمة هي رحمة أمة النبي صلى الله عليه وسلم في فترة العلامات كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن أمتي هذه مرحومة وجعل رحمتها في آخرها" [23].

ويربط النبي صلى الله علية وسلم بين مراحل الأمة وحقيقة الرحمة فيبين نبوة ورحمة.. وخلافة ورحمة.. وعز ورحمة.

3- ومن دلائل الرحمة ؛ المنع من الفتن.

مثل نهر الفرات الذي يخبئ جبلاً من ذهب، فلا ينحسر إلا في آخر الزمان. ومثل السد الذي بناه ذو القرنين فلا يفتح إلا في آخر الزمان.

4- أما الدلائل التي تتمم المنع من الفتن فهي الدلائل التي تحفظ منها إذا حدثت، وهى الدلائل الأكبر على الرحمة باعتبار أن حدوث الفتن حتماً مقضياً والحفظ منها رحمة، ومنها: صفة الدجال الدالة على النقائص المثبتة لكذبه:

- **مثل الكتابة على جبينه.**

1- وهناك ملاحظة منهجية في هذا الحديث الأخير، وهي أن هذين الصنفين الواردين في الحديث هما أول الشر وآخره. لأن أول الشر هو اتخاذ القبور مساجد لأن هذا الفعل هو بداية اتخاذ المقامات وفعل الشرك مثل الطواف والنذر والاستغاثة وشد الرحال. وآخر الشر هو عبادة الأصنام وتسافد الناس كتسافد البهائم.

2- رواه البزار وفيه الحارث بن عبد الله الأعور وهو ضعيف جداً، ووثقه ابن معين.

3- (صحيح) أخرجه أحمد في" مسنده " (418/4 ، 410). وأبو داود في آخر كتاب الفتن والملاحم (468/4/ح 4278). والحاكم في " المستدرك " (444/4) بلفظ: " أمتي أمة مرحومة ليس عليها عذاب في الآخرة، عذابها في الدنيا الفتن والزلازل والقتل " قال الحاكم:صحيح الإسناد لم يخرجاه وأقره الذهبي وهو كما قال.

1- أخرجه البخاري في ((الفتن)) / باب: لا يدخل الدجال المدينة (7132/109/13). ومسلم في ((الفتن)) / باب: ذكر الدجال (18:71. النووي). وعبد الرازق (20824/393/11) وابن حبان في ((صحيحه)) (83/8) و البغوي في ((شرح السنة)) (52/15) وابن حميد في ((المنتخب)) (895/70/2).

- ومثل الشاب الذي لا يستطيع قتله مرة أخرى بعد أن يحييه فيقول له: ما ازددت فيك إلا بصيرة، أنت الدجال. فعندما يريد قتله يضع الله على رقبته حلقة من النحاس تحفظه من القتل[24].
- ومثل جعل التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل عوضاً عن الطعام في السنوات التي بين يدي الدجال[25].
- ومثل تحريم مكة والمدينة على الدجال فلا يدخلها رعبه [26]. حتى إن المدينة ترجف ثلاث رجفات.
- ومثل قراءة العشر آيات من سورة الكهف، لأنها عصمة من الدجال[27].

ويكفي أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم في فتنة الدجال: " فإن يظهر وأنا بينكم فأنا حجيجه، وإن يظهر وأنا لست معكم فالله خليفتي على كل مسلم"[28]. يكفي هذا الاستخلاف النبوي لله سبحانه وتعالى رب العرش العظيم على كل مسلم، لذلك سأل الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم ماذا يقولون إذا ظهر الدجال بينهم فقال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل [29].

- ومثل إقرار الدجال نفسه، وهو في مرحلة ما قبل الظهور عندما يكون موثقاً بالسلاسل في إحدى الجزر، إقراره بأن الأولى اتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، إذْ يقول في حديث تميم الداري: فسأل – أي الدجال –: ماذا فعل نبي الأميين ؟ فيجيبوه فيقول لهم: أولى أن يتبعوه[30].

الإحسان:

ولتفسير أصل الإحسان في علامات الساعة، يحسن أن نقوم بتفسيره، فالإحسان هو التمام في الخير.

2- أخرجه أحمد في ((مسنده)) (6/ 453 – 454).

3- أخرجه البخاري في ((فضائل المدينة)) / باب: لا يدخل الدجال المدينة (1881/114/4) وفي ((الفتن)) / باب: ذكر الدجال (7124/96/13) وباب لا يدخل الدجال المدينة (7134/109/7) وفي= =التوحيد / باب: المشيئة والإرادة (7473/456/7). ومسلم في ((الفتن)) / باب: بقية من أحاديث الدجال (85/18 النووي). و ابن حبان (384/8).

1- أخرجه مسلم في ((الفتن)) باب / الدجال (18:63/6 النووي). وأبو داود في ((الملاحم)) / باب: خروج الدجال (114/4/ ح4321) و الترمذي في ((الفتن)) / باب: ما جاء في فتنة الدجال (510/4/ ح2240).

2- تقدم تخريجه فيما قبل.

6- أحمد في ((مسنده)) (374/4) من حديث زيد بن أرقم. وأخرجه أحمد في مسنده (7/3) و الترمذي في ((الفتن)) / باب: ما جاء في شأن الصور (2431/620/4). من حديث أبي سعيد الخدري.

4- أخرجه مسلم في ((الفتن)) / باب: قصة الجساسة (304/9/ ح2942) بلفظ أخبرني عن نبي الأميين ما فعل ؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب.

ولذلك ذكر يوسف إحسان الله إليه إذ أتم نعمته سبحانه عليه فقال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

[يوسف: 100].

ويجب الانتباه إلى أن ذكره الخروج من السجن يتضمن نعمة التمكين في الأرض، لأن التمكين جاء مع الخروج، وهو من تمام النعمة، أي الإحسان، إذْ قال له الملك بعد استدعائه من السجن: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِين) [يوسف: 54].

وعندما حدد النبي صلى الله عليه وسلم (الإحسان) اصطلاحاً فقد حدده بهذا المعنى، فأطلق الإحسان على إتمام أخير الأعمال وهو العبادة، فقال:

" الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك " [31].

وبهذا المعنى يكون الإحسان في علامات الساعة أظهر ما يكون في علامة يأجوج ومأجوج.

ذلك بأن الله قد أنجى المؤمنين بإيوائهم إلى جبل الطور.

ودعا عيسى راغباً لله أن يقتلهم.

فيرسل الله سبحانه النغف في رقابهم.

فيموتون فرسى.

فتأخذ الريح أجسادهم إلى المهيل. وسئل صلى الله عليه وسلم عن المهيل فقال: مطلع الشمس.

ولعلنا نلاحظ أنه المكان الذي وجد ذو القرنين عنده يأجوج ومأجوج عندما بنى الردم. أي إن الله سبحانه بقدرته أعادهم إلى مكانهم أمواتاً، فيرغب عيسى إلى الله أن يطهر الأرض من أجسادهم. فيرسل الله المطر فيطهر الأرض من نتنهم مما بقى من آثارهم، ويبقى المطر فيغسل الأرض حتى تصبح مثل الزلقة. لتخرج الأرض نباتها وتنزل السماء ماءها حتى إن اللقحة تكفي الفئام من الناس [32].

وبعد موت يأجوج ومأجوج.. وإعادتهم إلى أصلهم موتى وإرسال المطر وتطهير الأرض من نتنهم يبلغ الإحسان تمامه..

بأن تكون أجسادهم طعاماً لدواب الناس فتشكر (أي تزداد) لحوم هذه الدواب على أجساد يأجوج ومأجوج..

الخير:

وقد بلغ معناه الكامل في قيام الساعة ذاتها، وذلك عندما تقوم الساعة في خير يوم (يوم الجمعة) كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، وفيه تقوم الساعة " [33].

1- أخرجه مسلم في ((الإيمان)) / باب: الإيمان بالإسلام والإحسان (156/2/1، 157). وأبو داود في ((السنة))، باب: في القدر (4 / 223/ ح 4695) والترمذي في ((الإيمان)) / باب: ما جاء في وصف جبريل (261 / 706/51).

1- وأغلب ما تقدم من حديث النواس بن سمعان عند مسلم.

1- أخرجه مسلم في ((الجمعة)) / باب: فضل الجمعة (141/6/2 – النووي) بنحوه. وأبو داود في

ووصف الساعة بالخير له تفسير، وأساسه التناسب بين الخير والشر في

قدر الله، ولذلك سيتناسب خير الساعة مع الشر الذي سيبلغه الناس قبل قيامها مباشرة. وبذلك ستجمع الساعة بين المعنيين.

الأول: معنى الشر باعتبار الواقع الذي ستقوم عليه الساعة. وهو ما يناسب وصفها بقول الله عز وجل في الآية: ﴿ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾.

الثاني: معنى الخير باعتبار إنهاء هذا الشر الواقع وبداية مرحلة الحق والعدل، وبنفس القاعدة كان معنى الخير والشر في علامات الساعة. ولكن بترتيب يتفق مع الترتيب الزمني للعلامات لنصل إلى الساعة ذاتها.

وفي البداية يحكم الزمن قاعدة التناسب المذكورة في الساعة.

وهذه القاعدة على مدى الزمان كله تفسرها عدة نصوص.

النص الأول: سمعت عبد الله بن مسعود يقول: " لا يأتي عليكم يوم إلا وهو شر من اليوم الذي كان قبله حتى تقوم الساعة، لست أعني رخاءً من العيش يصيبه ولا مالاً يفيده،ولكن لا يأتي عليكم يوم إلا وهو أقل علماً من اليوم الذي مضى قبله، فإذا ذهب العلماء استوى الناس فلا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر فعند ذلك يهلكون " [34].

حديث الزبير بن عدي قال: " أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما يلقون من الحجاج، فقال: اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده أشر منه حتى تلقوا ربكم. سمعته من نبيكم عليه الصلاة والسلام " [35].

وهذا النص هو أساس القاعدة.

وهو ما نسميه المستوى اليومي المتحكم في اتجاه الزمن نحو الشر حتى قيام الساعة.

النص الثاني: خيرية يوم الجمعة المذكورة في الحديث الأول. والعلاقة بين النصين واضحة، فكل يوم جمعة لا بد أن يكون خير من اليوم السابق عليه. ولكن هذا الترتيب لا يمنع اتجاه الزمن نحو الشر على المدار اليومي.

النص الثالث: ليلة القدر، وهي الليلة التي تكون خير يوم في السنة. بل إنها ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [القدر: 3] كما ذكرت الآية.

ولكن خيريتها لا تخرج عن قاعدة النص الأول المتعلقة باتجاه الأيام والزمن نحو الشر.

النص الرابع: المجددون، وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((الصلاة)) / باب: فضل الجمعة ليلة الجمعة (1046/273/1) بلفظه والترمذي في ((صلاة الجمعة)) / باب: فضل الجمعة (359/2/ ح 488، 491) والنسائي في ((الجمعة)) / باب: كفارة ترك الجمعة (157/1/ ح 162).

1- ذكره الحافظ في الفتح (12/ 24). وقال أخرجه يعقوب بن شيبة من طريق الحارث بن حصيرة عن زيد ابن وهب سمعت عبد الله فذكره، وهو عند الدرامي بنحوه (1 / 65) والطبراني في (الكبير) (8551/109/9) جميعاً من طريق مجالد عن الشعبي عن مسروق به قال الهيثمي في ((المجمع)) (181/1) مجالد بن سعيد، اختلط وحسنه الحافظ في الفتح (24/13).

2- أخرجه البخاري في ((الفتن)) / باب: لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه (7068/22/13).

" إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها " [36].

وبمقتضى هذا النص نؤمن أن كل مائة عام يكون خير وجديد، ولكنه لا يخرج عن اتجاه قاعدة النص الأول.

ثم تأتي العلامات:

ليكون الزمن فيها محكوماً بنفس القاعدة بكل مستوياتها الزمنية،

على مستوى اليوم.

على مستوى الأسبوع. (يوم الجمعة).

على مستوى السنة. (ليلة القدر).

على مستوى كل مائة سنة. (التجديد).

لتكون العلامة الأولى وهي المهدي. وقاعدة التناسب بين الخير والشر في هذه أنه: " سيملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً ". ومن كلمة (كما) يتبين دقة التناسب.

ثم تأتي علامة الدجال وهو شر مطلق..

لتأتي علامة عيسى وهو الخير المطلق..

فيكون التناسب.. ثم تأتي علامة يأجوج ومأجوج..

فيكون بعدهم البقية التي سيرفعها الله من الأرض، وهم المؤمنون الذين يخبرهم عيسى بدرجاتهم عند ربهم.

ليكون بعدهم شرار الخلق الذين تقوم عليهم الساعة.

ثم تكون الساعة..

ولكن يضاف إلى هذا التصور المأخوذ من النصوص الشرعية حديث هام يحدد القضية تحديداً جوهرياً، وهو حديث حذيفة، وهو يوازي حديث العلامات، ولكن من خلال محور الخير والشر:

عن أبي إدريس الخولاني أنه سمع حذيفة بن اليمان يقول: " كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله: إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال: نعم، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دَخَن، قلت: وما دخنه ؟ قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال: نعم دعاة على أبواب جهنم، مَن أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله، صفهم لنا، قال: هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا. قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك " [37].

وكما هو واضح من الحديث فإن مقام النبوة كان أساساً في تحقيق خير الأمة.

1- أخرجه أبو داود في ((الملاحم)) / باب: ما يذكر في قرن المائة (4/106/ 4291). و والطبراني في ((الأوسط)) (6/ ح 6527). من حديث أبي علقمة عن أبي هريرة، قال السخاوي: سنده صحيح ورجاله كلهم ثقات وكذا صححه الحاكم، والمقاصد الحسنة (1/127/ ح 238).

1- أخرجه البخاري (13/38) الفتح، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة، وفي كتاب ((المناقب)) (6/712)، ومسلم بشرح النووي (12/236) باب: وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن.

روى البخاري ومسلم:

يأتي على الناس زمان يغزو فئام من الناس فيقال: فيكم من صاحب الرسول فيقولون: نعم فيفتح لهم ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال لهم: هل فيكم من صاحب أصحاب الرسول؟ فيقولون: نعم فيفتح لهم ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال لهم: هل فيكم من صاحب من صاحب أصحاب الرسول؟ فيقولون: نعم فيفتح لهم.

وفي رواية: " هل فيكم من قاتل مع رسول الله ؟ " بدلاً من: " هل فيكم من صاحب رسول الله.

ويبين مجاهد أن كل فتح على المسلمين هو من الفتح الذي كان للنبي صلى الله عليه وسلم وذلك في تفسير قول الله: ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ) [الفتح: **20**]، هو كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة (ابن كثير ص**161** ج**4**)، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: " زويت لي الأرض مشرقها ومغربها وستبلغ أمتي ما زوي لي منها " رواه مسلم.

الحق:

والقرآن يقول في الساعة: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً ﴾ [الأعراف: **187**].

ويفسر الآية قول النبي صلى الله عليه وسلم: " فتكون كالحامل المتّم لا يدري أهلها متى تفجئوهم بولادها ليلاً أو نهاراً ".

والقول الجامع للآية والحديث: أن الثقل هو الاقتراب، بصورة ثابتة للحق على الرغم من تغير مراحل هذا الاقتراب، تماماً مثل الجنين الذي يتغير كل يوم من حال إلى حال ولكنه متجه نحو الولادة، فلا يخرج التغير اليومي على التوجه للولادة.

فكما لا تنفصل الولادة عن لحظة الجماع الأولى كذلك لا تنفصل الساعة عن بدء الخلق.

ويؤكد هذا المعنى قول الله عز وجل: ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾

[الأنبياء: **97**].

ثم يمر كل يوم ليقترب الوعد الحق، كما قال الله عز وجل: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ [إبراهيم: **19**] لأن أي اقتراب من الوعد الحق هو نفسه حق. ثم تأتي كل أحداث الساعة لتكون بذاتها أشد إظهاراً للحق.

فالانشقاق حق: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ(**1**)وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ(**2**)﴾

[الانشقاق].

ومد الأرض حق: ﴿ وَإِذَا ٱلأَرْضُ مُدَّتْ (**3**) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ(**4**) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (**5**) ﴾ [الانشقاق].

والصيحة حق: ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ﴾ [ق: **42**].

والميزان حق: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾ [ق: **42**].

وبداية الخلق إلى نهايته، بدء وإعادة ؛ هو حق لأنه من الله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: **27**] كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ: **49**].

وبصفة عامة، ارتبطت الساعة بالحق في قول الله الجامع: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ 6 وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ 7) [الحج].

وبصفة عامة أيضاً ارتبطت الساعة بالثقل، وهو ارتباط بالحق من حيث

المعنى، لأن الآية تصف الحق بالثقل لأن الحق له ثقل حقيقي. وفى هذا

قول الله: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ [المزمل: 5]، و (ثقيلاً) في الآية ليست مجازاً، بل إنها حقيقة وصفها الصحابة فيما رووه عن صفة الوحي المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم. فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرانها على الأرض فما تستطيع أن تتحرك حتى يسري عنه [38].

وعلى هذا أيضاً يكون قول الله في الآية: ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُم إِلاَّ بَغْتَةً ﴾، أي: إن السماوات والأرض تثقل بالساعة.

والتعبير العام عن علامات الساعة يفيد معنى هذا الثقل.

مثل القارعة التي تفيد الثقل والشدة.

والطامة التي تفيد الثقل والشمول.

والزلزلة التي تفيد النوء بالثقل. ومنه قول الله: ﴿ وَأَخْرَجَتْ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾[الزلزلة: 2].

وقوله: ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [الانشقاق: 4].

هذا هو الحق في بداية الوجود ونهايته.

أما الحق بينهما فهو حق العلامات، وهو موضوع الدراسة تحديداً، ويتميز الحق في مرحلة العلامات بأنه:

- شواهد ثبات المرحلة الدنيا.
- شواهد الانتقال من الدنيا للآخرة.
- شواهد اجتماع كل ما كان في الدنيا في العلامات.
- ارتباط كل أحداث العلامات بالسنن الثابتة.
- الإخبار عن كل ذلك، وتحققه في الواقع.

أصل العدل:

والحقيقة أن هذا الأصل تتمثل دلائله بصفة أساسية في علامة المهدي ؛ ذلك لأن أهم عمل للمهدي هو أنه يملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً.

وإن كان هذا هو العمل الأساسي للمهدي، إلا أن هناك دلائل على العدل مرتبطة بالمهدي لها قيمة تصورية عظيمة وهي حادثة الخسف بجيش السفياني.

1- أخرجه أحمد في ((مسنده)) (6/ 118)، وابن جرير في ((تفسيره)) (80/29)، و الحاكم في ((مستدركه)) (505/2) جميعاً من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة به. وقال الحاكم: هذا الحديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

وقبل تفسير حادثة خسف جيش السفياني نستطرد قليلاً في مفهوم العدل في هذه المرحلة الزمنية التي نسميها علامات الساعة.

وفي هذا الاستطراد يجب أن نفهم أن العدل في هذه المرحلة سيكون مفهوماً كونياً.

مثل حادثة الشاة الجلحاء والشاة القرناء، كما قال صلى الله عليه وسلم (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء).

فالظلم في هذه الحادثة ظلم كوني لأن الظلم غير تكليفي، والقصاص أيضاً قصاص كوني ؛ لأنه قصاص غير تكليفي، وبهذا المعنى ننتقل إلى واقع حادثة خسف الجيش.

وعناصر حادثة خسف الجيش:

- المهدي، وهو من نسل فاطمة..
- الجيش الذي سمع به وأراد أن يقاتله وعلى رأسه رجل اسمه (السفياني)
- الخسف بالجيش قبل الوصول إليه.

والتفسير:

- أن المهدي من نسل فاطمة وعليّ أبو الحسين.
- السفياني الذي يوافق اسمه اسم أبو معاوية وجد يزيد.
- الفتنة بين علي ومعاوية وامتدادها في الحسين ويزيد.
- الفئة الباغية في الفتنة كانت فئة معاوية.
- التصحيح بالقصاص الكوني يحتم أن ينتصر علي في امتداده المهدي، ويهزم معاوية في امتداده السفياني.

وتنعكس نتيجة الصراع بين امتداد الأطراف ليكون القصاص والتصحيح.

روى مسلم عن أم سلمة: وسئلت عن الجيش الذي يخسف به، وكان ذلك في أيام الزبير فقالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ويعوذ بالبيت عائذ فيبعث إليه البعث، فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم، فقلت: يا

رسول الله، وكيف بما كان كارهاً ؟ قال: يخسف به معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته ".

" ليؤمن هذا البيت جيش يغزونه حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأوسطهم ويعادي أولهم آخرهم، ثم يخسف بهم فلا يبقى منهم إلا الشريد الذي يخبر عنهم " رواه ابن ماجة.

الجامعة (من عبارة: أفعال الله الجامعة):

- وقد أوضحنا أن العلامات هي أفعال الله الجامعة، ومعنى لفظ
- (الجامعة) في التعريف هو: أن أفعال الله المحققة لعلامات الساعة لها صفة الجمع لأن الساعة هي إعادة الخلق إلى الله، والعلامات هي الجمع السابق للإعادة.
- وبصفة عامة فقد تحققت حقيقة الجمع في العلامات، وفى كل علامة بذاتها.
- مثلما اجتمع نسب النبي صلى الله عليه وسلم واسمه وصفته في المهدي.
- واجتمعت فتنة الخير في عيسى ابن مريم عليه السلام.
- واجتمعت فتنة الشر في الدجال.

- واجتمعت الآيات في الدابة.

وبذلك يجمع الله أفعاله في العلامات، وقاعدة جمع الشيء قبل إعادته فعل إلهي ثابت، ومثاله الواضح: جمع الإسلام في المدينة ثم رفعه منها كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الإسلام يأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى

جحرها ".

- ومثاله أيضاً: جمع الناس في أرض المحشر وجمعهم في الساهرة.
- ومثاله جمع السموات،كما قال سبحانه: ﴿ والسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾.
- ومثاله أيضاً: جمع الأرواح بالنفخ في الصور، بدليل قول الله عزّ وجل:

﴿ ونُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً ﴾.

وسيفهم تفسير لفظ: (الجامعة) بصورة تفصيلية كاملة من خلال عرض العلامات ذاتها فيما بعد..

الفصل الثاني

الوحدة الزمنية

- التجانس
- التقسيم
- الكبر
- حساب الزمن
- الإنذار
- النهاية أو الإعادة
- البغت (النهاية المفاجئة)

الوحدة الزمنية:

وبعد فهم العلامة باعتبارها من (أفعال الله الجامعة) ننتقل إلى فهم العلامات باعتبار الوحدة الزمنية لأفعال الله وهى العبارة القائلة في التعريف في نهاية الدنيا وبداية الآخرة.

وذلك من خلال الخصائص الناشئة عن الوحدة الزمنية للفعل الإلهي.

وهي التي أنشأت أساساً عاماً في فهم العلامات وهو التجانس.

التجانس:

وباعتبار أن علامات الساعة لا تخرج في بدايتها ونهايتها عن مرحلة واحدة وهي البرزخ، لزم تحقيق التجانس بين العلامات في إطار وحدة المرحلة.

ومن ناحية أخرى لزم تحقيق التجانس بين العلامات جميعها وبين الساعة ذاتها، ليتمثل هذا التجانس في وحدة الأسلوب الذي يُهدم به البناء الكوني الذي سيكون في الساعة ذاتها وبين إهلاك الأمم في الدنيا كمقدمة للساعة ومنها القارعة والرجفة والصيحة.

ويبلغ التجانس حده النهائي عندما يقول التفسير إن الريح التي أهلك الله بها عاداً هي نفسها التي يرسلها على البحار فيسعرها وتثير ناراً في أحداث الساعة.

أما الربط بين إهلاك الأمم والساعة فقد جاء في عدة مواضع:

منها قول الله سبحانه في سورة هود، الآيات [102: 104]:

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ، وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴾.

وقول الله سبحانه في سورة الأنبياء: [الآية 44]:

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاَءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمْ الْعُمُرُ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمْ الْغَالِبُونَ ﴾، حيث ورد في إنقاص الأرض هو خراب الأرض وإهلاك أهلها، وذلك بموت علمائها [39]. وهو العلامة التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: " يرفع العلم ويكثر الجهل ويكثر الزنى والزلازل " [40]، حتى تقوم الساعة بزلزالها الأكبر. وقول الله سبحانه وتعالى في سورة الإسراء، [الآية 58]: ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾، وهذا إخبار من الله عز وجل حتم وقضى بما قد كتب عنده في اللوح المحفوظ أنه ما من قرية إلا سيهلكها، أي يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم ﴿ عذاباً شديداً ﴾.

وكما كانت الزلازل في العلامات مقدمة لزلزال الساعة الأكبر، كانت الصواعق في العلامات مقدمة لصعق الساعة الأكبر، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: " تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة حتى يأتي الرجل القوم فيقول من صعق قبلكم الغداة ؟ فيقولون: صعق فلان وفلان وفلان " [41].

وكما قال تعالى في الصعق الأكبر: ﴿ ونُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ ومَن فِي الأَرْضِ ﴾[الزمر: 68].

وبذلك أصبحت العلامات بين يدي الساعة متجانسة تماماً مع الساعة ذاتها.

فمن العلامات: (كثرة الزلازل)، وكانت هي الزلزال الأكبر.

ومن العلامات: (كثرة الصواعق)، وكانت هي الصاعقة الكبرى.

الكبر:

ومن مرحلة إهلاك الأمم كمقدمة بين يدي الساعة.. يبقى التجانس ليتجه نحو الكبر في علامات الساعة نفسها بعد إهلاك الأمم كمقدمة لها.

أي إن العلامة التي تتجانس مع أختها يتحقق فيها كلما استمرت طبيعة الساعة لتكون الساعة أكبر صورة للعلامات.

التقسيم: (صغرى وكبرى)

ومن خلال الأساس العام تتحدد الخصائص العامة لعلامات الساعة.

وأول هذه الخصائص هو انقسامها إلى صغرى وكبرى.

---

1 – قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة.

2– أخرجه البخاري عن أبي هريرة بنحوه، الفتح (10366/605/2) باب: ما قيل في الزلازل والآيات، كتاب الاستسقاء. وفي الزكاة باب: الصدقة قبل الرد (1412/330/2). وفي الفتن باب: بدون ترجمة (13/88/ ح 7121).

3– أخرجه أحمد في مسنده (3/64–65) والحاكم (4/491/ ح 8373) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. من حديث أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه –.

والصغرى هي العلامات التي تكون أكثر تجانسًا في طبيعتها مع الدنيا.

والكبرى هي العلامات التي تكون أكثر تجانسًا في طبيعتها مع الآخرة.

والعلامات الصغرى هي المثبتة للخلل الذي سيصيب الدنيا ليكون من أوله حديث: " ثلاث من علامات الساعة: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ". لتكون بداية الفتن فيجتمع الخلل في الطبع الإنساني مع خلل الأمة.

حتى تأتي العلامات الكبرى ليكون من آخرها الشمس التي سيقف بها زمن الدنيا، والدابة التي ستختم العمل. تمهيداً للجزاء في الآخرة.

وما بين المرحلتين مرحلة وسط.. وهى العلامات التي تشهد التحول من الغيب إلى الشهادة، أو اقتراب الشهادة من الغيب.

ومنها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:" لا تكاد رؤيا المؤمن تكذب "[42].

وقوله: " لن تقوم الساعة حتى يحدث الرجل شرك نعله أو عذبة سوطه، ما فعل أهله من بعده "[43].

حساب الزمن:

وقبل تفسير هذه الخصيصة نفسر العلاقة بين الحدث والزمن أصلاً. وبصفة عامة ؛ فإن الدنيا كانت نموذجاً عاماً للعلاقة بين الحدث والزمن , وهي الحالة التي يذكر فيها قوة الحدث وزمنه دون غلبة لأحدهما على الآخر. فنقول في الدنيا: حدث كذا يوم كذا..

والاستثناء منها نموذج للحال الثاني. مثال قول الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ

بِأَيَّامِ الله إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم:5]، أي: بنعمه ونقمه. أي إن الأيام عرفت بالنعم والنقم.

ومثل أن تقول: يوم بدر، وعام الفيل، فيُعرف الزمن بالحدث. أي إن الحدث يغلب على الزمن، وهي الحالة الثانية من العلامات.

حيث تقترب الدنيا من النهاية فيبدأ حساب الزمن بالحدث. بعد غلبة الحدث على الزمن مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم: " يوم الخلاص وما يوم الخلاص، يوم الخلاص وما يوم الخلاص، ثلاثاً.

فقيل له: وما يوم الخلاص، قال: يجئ الدجال فيصعد أُحُد فينظر إلى المدينة فيقول لأصحابه: أترون هذا القصر الأبيض ؟ هذا مسجد أحمد. ثم يأتي المدينة فيجد بكل نقب منها ملكاً مصلتاً.

1- أخرجه البخاري في التعبير باب القيد في المنام، (الصحيح مع الفتح) (422/12/ ح7017) بلفظ " إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب " وفى الفتن من وجه آخر عن أبي هريرة، بلفظ " يتقارب الزمان ويرفع العلم " الحديث. ومسلم، كتاب الرؤيا (النووي 22/8/ ح2263).و الترمذي في ((الرؤيا)) / باب:أن رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة (2270/532/4) وابن ماجة في ((التعبير)) باب / أصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثاً (3917/1289/2).

1- أخرجه أحمد في مسنده (84/3). و الترمذي في ((الفتن)) (2181/476/4) قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث القاسم بن الفضل. وأخرجه الحاكم في مستدركه (467/4)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

فيأتي سبخة الجرف فيضرب رواقه، ثم ترجف المدينة ثلاث رجفات فلا يبقى منافق ولا منافقة، ولا فاسق ولا فاسقة، إلا خرج إليه، فذلك يوم الخلاص " [44].

مثلما يكون في علامة الدجال حتى يذكر الرسول صلى الله عليه وسلم زمناً غير ثابت لحدثه فيقول: " ومدة بقائه في الأرض أربعين يوماً، يوم كجمعة ويوم كشهر ويوم كسنة وباقي أيامه كأيامكم هذه " [45].

ومن هنا تنشأ دلالة جديدة للفظ: (اليوم) ليكون هو الوحدة الزمنية الجامعة لأحداث ذات صفة مشتركة.

وهذه القاعدة التي تحسب بها أيام الدجال ستكون مقدمة لحساب الزمن في الآخرة كلها، حتى تأتي الساعة فلا يذكر اليوم إلا بأحداث لتكون الساعة هي الحدث وهي الزمن في نفس الوقت.

حتى سميت الساعة بكل أحداثها وأهوالها (يوم القيامة).

وقياساً على ذلك تكون أحداث الساعة بعد ذهاب الليل والنهار الدنيويين فيكون اليوم الذي تنسب إليه أحداث الساعة وحدة زمنية معبرة عن الحدث فقط.

مثل يوم القيامة، يوم البعث، يوم الحشر، يوم الحساب وهكذا... وبذلك يكون لحساب الزمن ثلاثة معايير:

الليل والنهار... وهو يوم الدنيا.

الحدث الأكبر من الزمان... وهو أيام العلامات.

الحدث الذي هو ذاته حساب الزمن، وهو الساعة وأحداثها.

وباعتبار مجيء الساعة بغتة فقد حسبت كجزء من اليوم لأن الساعة لغة هي الزمن السريع وهي جزء من الليل أصلاً. قال ابن منظور: الساعة قطعة من

الليل. ولكن يمكن إطلاقها على الجزء من الليل أو النهار.

الإنذار:

وباعتبار أن علامات الساعة إنذار بالساعة.

فإن حقيقة الإنذار قد شملت العلامات وطبيعتها.

وعلامة انشقاق القمر هي الدليل الأول على معنى الإنذار في العلامات، فإذا افترضنا أن قيام الساعة ذاته مرهون بالشمس ؛ فيكون انشقاق القمر إنذاراً لها، بسبب علاقته بالشمس، وباعتبار أن

---

1 – أخرجه أحمد في المسند (338/4) وابن أبي شيبة في (مصنفه) (19337/143/15) عن أنس. والحاكم في المستدرك (543/4) كتاب الفتن، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وأقره الذهبي والطبراني في الكبير (1 / 254 / ح 732) عن انس وذكره الحافظ في الفتح (100/13) وسكت عنه. وذكره الهيثمي في المجمع (308/3) وقال: رجاله رجال الصحيح.والحديث أصله في الصحيحين مختصر على رجف المدينة ثلاث مرات عن انس مرفوعاً أخرجه البخاري (7473/7134/7124/1881) ومسلم (3943).

2– أخرجه مسلم في كتاب الفتن باب ذكر الدجال (289/9/ح 2137) من حديث النواس بن سمعان وهو في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ: ((لا ادري أربعين يوماً، أو أربعين شهراً)). وفي المسند (166/2). والحاكم في ((المستدرك)) (551/550/4) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

تنبيه: قال الحافظ في ((الفتح)) (13/ 112) والجزم بأنها أربعون يوماً مقدم على الترديد.

الشمس هي بداية الساعة، والقمر قبل الشمس أصبح القمر نذيرًا ؛ لأن النذير هو الذي يسبق الحدث بحيث يكون قريباً منه.

وهذا المعنى ليس استنتاجاً ولكنه حقيقة قرآنية جاءت فيها سورة كاملة وهي سورة القمر ابتداءً من قول الله عز وجل: ﴿ اقْتَرَبَتْ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾

[القمر: 1] حتى آخر السورة مروراً بقول الله في السورة: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر: 16] عدة مرات.

النهاية أو الإعادة:

وباعتبار خصيصة الكبر تأتي خصيصة النهاية، لأنها النتيجة للكبر. ومعنى النهاية هو نفسه معنى إعادة الخلق إلى الخالق (سبحانه).

وهذه الإعادة هي أخطر خصائص العلامات.

لأن هذه الإعادة ستكون بنفس نظام البدء.

فكما أن الله أنزل الأمانة قبل الدين.

فإنه سبحانه يرفع الأمانة قبل رفع الدين.

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أول ما يرفع من دينكم الأمانة، وأخر ما يرفع من دينكم الصلاة " [46].

ثم يرفع العلم...

ثم ترفع الأحكام...

ثم ترفع الصلاة...

ثم يرفع القرآن...

ثم ترفع لا إله إلا الله.

هذا هو الدين ذاته. أما واقع الدين.

فإنه يعود من حيث بدأ.. إلى المدينة... كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الإسلام يأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جُحرها " [47].

(البغت) أو النهاية المفاجئة:

والبغت: صفة للساعة، وهي حقيقة ضرورية لتحقيق التوازن بين بعدين منهجيين في تصور العلامات والساعة...

بعد خفاء الساعة...

1- أخرجه الطبراني عن عمر بن الخطاب مرفوعا بلفظ: " أول ما يرفع من الناس الأمانة وآخر ما يرفع الصلاة " قال الهيثمي في ((المجمع)) (321/7) فيه حكيم بن نافع وثقة ابن معين وضعفه أبو زرعة وبقية رجاله ثقات وفي الباب عن أبي هريرة عن أبي يعلي وفيه أشعث ابن براز وهو متروك كذا قال الهيثمي ايضاً. وفي مسند الفردوس من حديث علي بن أبي طالب مقتصراً على أول الحديث (48/1) وعزاه ابن حجر في ((شديد القوس)) إلى أحمد من حديث عوف بن مالك والطبراني من حديث أبي الدرداء. قال الألباني في صحيح الجامع (353/2): صحيح.

1 - أخرجه البخاري في ((فضائل المدينة))، باب الإيمان يأرز إلى المدينة (1876/111/4) عن أبي هريرة بلفظ: " إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها ".

وبعد مجيء الأشراط...

وقد جمعت الآية: ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [طه: 15]، هذين البعدين، فالساعة لا يعلم وقتها إلا الله. وهذا هو الخفاء.

ولكن للساعة علامات تنذر بمجيئها، وهو معنى: ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾.

والبغت هو التوازن بين البعدين.

فالخفاء ليس مطلقاً لأن الساعة علامات ظاهرة.

والعلامات لا تفيد العلم بوقت الساعة المحدد.

ولا تفسر هذه العلاقة بأحسن من كلام النبي صلى الله عليه وسلم: " الساعة كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تفجئهم بولادها ليلاً أو نهاراً " [48].

فتمام الحمل يفيد دخول وقت الولادة، ولكن لا يحدد لحظتها.

وهذا تفسير قول الله عز وجل: ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إلا بَغْتَةً ﴾ [الأعراف: 187].

ولذلك جاءت: (ثقلت) تشبيهاً بثقل الحمل.

ويصور النبي صلى الله عليه وسلم البغت في قيام الساعة فيقول:

" لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه " [49].

الباب الثاني

التصور المنهجي للعلامات

- المهدي
- الدجال
- عيسي ابن مريم
- يأجوج ومأجوج
- الدابة
- الشمس

اتفقنا أن العلامات هي أفعال الله الجامعة، (وكان تفسير هذا الجزء هو الفصل الأول من الكتاب)، في نهاية الدنيا وبداية الآخرة، (وكان تفسير هذا الجزء هو الفصل الثاني).

وتحقيق إيمان الناس من خلال العلامات يكون باعتبار زمنيين مختلفين:

الأول: زمن ما قبل حدوث العلامات، وتحقيق الإيمان فيه يكون بفهم العلامات واليقين في حدوثها والتصور الصحيح لإسقاطها على الواقع.

والثاني: زمن حدوث العلامات في آخر الزمان، وتحقيق الإيمان فيه يكون بحدوث العلامة ذاتها وتحققها في الواقع فعلاً.

---

2 – أخرجه الحاكم في المستدرك (4/ 488، 489)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي.

1– أخرجه البخاري في ((الفتن)) / باب: بدون ترجمة. الفتح (13 / 7121/88).

وباعتبارنا في زمن ما قبل الحدوث فإن تحقيق إيمان الناس يكون:

بطرح التصور المنهجي لفهم العلامات.

من خلال التصور المنهجي لكل علامة.

ومن خلال التصور المنهجي العام للعلامات.

أولاً: المهدي

والحكمة الأساسية في علامة المهدي هي أنه حلقة في الامتداد بصلاحية الأمة حتى آخر الزمان. ولذلك اجتمعت فيه كل عوامل هذا الامتداد.

أما الدليل على هذه الحكمة فهو الارتباط الثابت في نصوص المهدي بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم. فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: " كيف تهلك أمة أنا أولها، والمهدي في وسطها، وعيسى في آخرها " [50]. ولعل ذكر المهدي في الوسط يدل على أن الأمة قد استحقت الانقطاع في زمن يأتي بعد ذلك ويأتي المهدي ليصحح حالها بإذن الله لتبقى حتى آخر الزمان.

وحقيقة امتداد المهدي بالأمة إلى آخر الزمان قدر مكتوب لابد أن يكون

بإذن الله. مهما بلغت المدة التي سيمتد بها حتى ولو كانت يوماً واحداً، بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لو لم يبق من الدنيا إلا ليلة لتملك فيها رجل من أهل بيتي " [51].

وذكر ظهور المهدي بهذه الصورة هو الذي يؤكد حتمية هذا الامتداد وأنه هو الحكمة الأصلية من هذا الظهور. ولعل البقاء على إمامة الأمة في الصلاة حتى آخر الزمان دليل على هذا الامتداد وقول عيسى له: " إمامكم منكم تكرمة الله لكم هذه الأمة " [52].. نص صريح في هذا المعنى..

ولكن الامتداد بالأمة حتى آخر الزمان ليس مهمة سهلة. بل تتطلب أن يجتمع في المهدي كل الإمكانيات اللازمة لهذا الامتداد.

وأول هذه الإمكانيات.. الخلافة، فالمهدي خلافة مباركة سيعينه الله عليها، لأنه لم يكن يستشرفها لنفسه بل كان كارهاً لها.وهذا هو سبب البركة والصلاح.

ولذلك ولأجل البركة في الخلافة، كان المهدي هو الخليفة الذي يحثو المال حثواً. وفي هذا دليل على بركة عدم الاستشراف للدنيا والسلطان والمال.

ولعل أهم أسباب الهداية القدرية للمهدي المتعلقة بالخلافة هي مكان الخلافة نفسه، لأن الله عز وجل ذكر هذا المقام كمقام هداية وآيات بينات للعالمين فقال عز وجل: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ 96 فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ 97 ﴾

1- ذكره صاحب عقد الدرر وعزاه إلى أبو عمرو الداني في ((سننه)) وفي الحاشية عزاه إلى لوحه (110 – 111) له بلفظ: " قد أفلحت أمة أنا أولها عيسى آخرها ".

2 – عزاه صاحب عقد الدرر إلى الحافظ أبي نعيم في ((صفة المهدي)) من حديث أبو هريرة.

1- أخرجه البخاري في ((أحاديث الأنبياء)) / باب: نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام (3449/566/6)، بلفظ: "كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم ". ومسلم في ((الإيمان)) / باب: نزول عيسى ابن مريم حاكماً (468/1/ح 156) بلفظ: " فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام فيقول أميرهم: تعال صلّ لنا. فيقول: إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة ".

[آل عمران: 96، 97].

والملاحظة الدقيقة – في انطلاق المهدي من بين الركن والمقام – جديرة بالذكر. فبالنسبة للمهدي، فإن الملاحظة في مكان انطلاقه هي الربط بين سيدنا إبراهيم كأول إمام للأمة المسلمة، وبين المهدي كآخر إمام لها. ووسيطة الإمامة المحمدية بينهما.

ويجمع بين الثلاثة علامة صورية وهي الشبه بينهم، فأما الشبه بين النبي

صلى الله عليه وسلم وسيدنا إبراهيم فهو قول النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج في وصف الأنبياء. فجاء ذكر سيدنا إبراهيم فقال: فهو أقرب ما يكون شبهاً بصاحبكم.

وأما بالنسبة للشبه بين سيدنا محمد والمهدي، فهو قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – في المهدي: " إنه أجلى الجبهة وأقنى الأنف " [53].

ولعل ما يثبت للمهدي التجرد وعدم الاستشراق وينفي عنه حب الرياسة هو تراجعه لعيسى ليصلي بالناس.

وموقف الإمامة – بالذات – يعتبر دليلاً على التجرد. لأنه يوضح طبيعة المهدي التي لم تتغير لأنها الطبيعة الطيبة المتجردة التي بقيت بعد ممارسة السلطان والخلافة ووفرة المال.

وإذا اتفقنا أن الامتداد بالأمة حتى آخر الزمان أمراً ليس سهلاً، فان البحث في إمكانيات هذا الامتداد، يجب أن يبلغ تمامه. ولعل ما يلفت النظر في هذا البحث هو النسب الذي بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم لأن مقام النبوة أصل في حفظ الأمة وبقائها. بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أنا آمنة لأصحابي، وأصحابي آمنة لمن بعدهم " [54]، هذا من حيث الحفظ، إما من حيث التمكين في الأرض فهو مرتبط كذلك بهذا المقام.

لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " فيقال هل فيكم من صاحب

رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون لهم: نعم فيفتح لهم ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال: فيكم من صاحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون نعم فيفتح لهم " [55].

وبذلك يتأكد أن الصلة برسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل فاعلية قدرية عظيمة في حفظ الأمة والتمكين لها في الأرض. ومن الصلة برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الاسم ؛ لأن الاسم يشارك النسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفاعلية، بدليل ما رواه البخاري في باب تحويل الاسم إلى أحسن منه: قال: البخاري: جلست إلى سعيد ابن المسيب فقال إن: " جده حَزَن قدم على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: ما اسمك ؟ فقال: حزن، فقال: بل أنت سهل، قال: ما أنا

1- إسناده حسن كما قال الأرنؤوط وانظر شرح السنة (85/15ح 86)، باب المهدي وذكره صاحب عقدة الدرر في أخبار المنتظر، ص: 164. وله شواهد كثير ذكرها في كتابه. وأخرجه نعيم بن حماد في ((الفتن)) وعزاه في حاشية عقدة الدرر إلى لوحة رقم (10) له.

1 – أخرجه مسلم في ((فضائل الصحابة)) / باب: بيان أن بقاء النبي صلى الله عليه وسلم أمان لأصحابه. (222/8/ح 2531).

2 – أخرجه البخاري في كتاب الفضائل عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (6/7 /ح 3649).

بمغيَّرٍ اسماً سمانيهِ أبي، قال ابن المسيب: فما زالت فينا الحزونة بعده "[56]، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسر الرؤى بحسب ما ورد فيها من أسماء، مثل الرؤية التي جاء فيها أسم عقبة بن رافع، ففسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن العاقبة لنا، وأن الله رافع شأننا [57].

فإذا كان المهدي هو محمد بن عبد الله، فان حظه من الهُدى يكفي –

بإذن الله– لأن يكون هادياً مهدياً، ولكن الملاحظة اللفظية الرائعة في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يواطئ اسمه اسمي " دليل على فاعلية الاسم لأن لفظ يواطئ يعني يوافق كما يعني يؤكد.

وقبل ذلك القرشية، وفيها يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " الناس تبع لقريش خيرهم لخيرهم وشرهم لشرهم " [58].

وقبل ذلك كله، الامتداد من نسل إسماعيل.. أشد الأمة على الدجال.

وليس أدل على أن المهمة الأساسية للمهدي هي الامتداد بالأمة ونجاتها من الأخطار التي ستكون ظاهرة فيها عند ظهور المهدي والتي ستظهر فيها المهدي وكلها موجبة للهلاك، وهي:

1. **يبعث على اختلاف من الناس... وزلازل...**
2. **ويُقتل ثلاثة من الخلفاء على السلطة [59].**
3. **انحسار الفرات عن جبل من الذهب. حتى يقتتل بسببه الناس فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون. كلهم يظن أنه صاحبه [60].**
4. **ملئت الأرض جوراً [61].**

وليس أدل على هذه المهمة كذلك من الآثار المقابلة المواجهة لأسباب الهلاك، بحيث يكون المهدي:

---

3 – أخرجه البخاري في ((الأدب)) / باب: اسم الحزن (6190/589/10).

1– أخرجه ابن أبي عاصم في ((كتاب السنة))(635/2/ح 1511) والبخاري في ((المناقب)) / باب: قول الله تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى...) الآية (6/ 608/ح 3495) عن أبي هريرة بلفظ: " الناس تبع لقريش في هذا الشأن: مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم ".

2– أخرجه الحاكم في المستدرك (463/4، 8432/464) عن ثوبان رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يقتتل عن كنزهم ثلاثة كلهم ابن خليفة ثم لا يصير إلى واحد منهم ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقاتلونكم قتالاً لم يقاتله قوم، ثم ذكر شيئاً فقال: إذا رأيتموه فبايعوه ولو حبوا على الثلج فإنه خليفة الله المهدي ".

1– أخرجه البخاري في ((الفتن)) / باب: خروج النار (84/13/ح 7119). ومسلم في ((الفتن)) / باب: لا تقوم الساعة حتى ينحسر الفرات عن جبل من ذهب (245/9/ح 2894) وأبو داود في ((الملاحم)) / باب: حسر الفرات عن كنز (133/4/ح 4313).

2– أخرجه أحمد في ((مسنده)) (37/3)، وذكره في الكنز (361/14، 38653) وعزاه الباروردي.
قال الهيثمي: رواه الترمذي وغيره باختصار، ورواه الهيثمي في المجمع (313/7، 314).

1. أن يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض [62]، وهو ما يقابل اختلاف الناس وهذا أعظم إجماع حول رجل في تاريخ الدنيا.
2. يبايع له وهو كاره وهو ما يقابل اقتتال الخلفاء قبله على السلطة.
3. تذهب فتنة المال ؛ لأنه يوزع المال صحاحاً ويحثيه حثواً، مقابل فتنة انحسار الفرات عن الذهب التي ستسبق المهدي.
4. يملا الدنيا (أو الأرض) عدلاً وهو ما يقابل ملئها جوراً. (كما ذكر
5. آنفاً).

والوقوف عند لفظ (جوراً) يمثل في علامة المهدي معنى مهماً، وهو أن الجور خروج عن العدل، وأيضاً عن الهداية، وبذلك يكون لفظ جور هو بالضبط اللفظ المقابل للفظ (حنيفاً)، ويكون جوراً مائلاً إلى الضلال وحنيفاً مائلاً عن الضلال. وفي هذا المعنى جاء قول الله عز وجل: ﴿ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنهْا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النحل: 9]. (ومنها جائر) فسره ثعلب بقوله (اليهود والنصارى)، وفي الحديث: (هو جور عن طريقنا)، أي مائل عنه ليس على جادته من جار يجور إذا مال وضل. ومنه الحديث: " حتى يسير الراكب بين النطفتين لا يخشى إلا جوراً أي ضلالاً عن الطريق " [63].

وبذلك يكون معنى اللفظ (كما ملئت جوراً) أي كما ملئت ظلماً وضلالا. ولعلنا نلاحظ وضوح الآثار القدرية بصور متفاوتة، فى علامة المهدي، ابتداءً من كونه حقاً وفاعلية الحق معروفة قدراً، مروراً من خير القرشية، وفاعليتها القدرية في تبعية الناس لها. ومروراً بنسل إسماعيل (أشد الأمة على الدجال). والاسم

(والنصيب من الاسم) وقلة الطائفة المبايعة (وفاعلية القلة المؤيَّدة من الله). ثم

خسف الجيش المعادي له بالبيداء ؛ لتكون الآثار القدرية أكثر وضوحاً وأتم حدوثاً بفتح القسطنطينية بالتكبير.

ولعل أهم الأسباب القدرية التي هيئها الله عز وجل للمهدي لتحقيق الغلبة له على أعدائه من الروم هو الولاء الذي سيكون قائماً بين المسلمين في عهده، والذي وضح من خلال طلب النصارى أن يخلى المهدي بينهم وبين الذين أسلموا بعد أن كانوا نصارى ورفض المهدي لهذا الطلب.

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة: 56].

ومن الأسباب التي هيئها الله للمهدي لتحقيق الغلبة له هو خيانة النصارى أنفسهم، والله لا يحب الخائنين، وبين القرآن فيهم: ﴿ فَقَدْ خَانُوا اللهِ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾ [الأنفال: 71].

---

3 – أخرجه الحاكم في ((مستدركه)) (465/4).

4 – أخرجه في ((صحيحة)) من طريق ثابت عن انس. وأخرجه ابن منده في ترجمة عقبة بن نافع فصحفه وتعقبه أبو نعيم. أ هـ نقلاً عن ((الإصابة)) للحافظ ابن حجر (م / 482).

1– وأصله في الصحيح من حديث خباب بن الأرت قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم – وهو متوسد بردة بالكعبة –: ألا تستنصر لنا... الحديث. وفيه: " حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه " (الفتح (202/7)).

وذلك في غير حديث منها حديث ذي حجير رجل من صحابه النبي صلى الله عليه وسلم سمعه يقول: تصالحون الروم صلحاً آمناً. وفيه... " فيغدرون ويجتمعون للملحمة " [64] ونحو هذا أيضاً في حديث ابن مسعود [65].

ويشير أحاديث منها حديث أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قال: يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من أهل المدينة هارباً إلى مكة فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام [66].

ثم نأتي إلى أهم أسباب تهيئة الواقع للمهدي لنجدها:

خلافة قبل المهدي:

ومما يجب الانتباه إليه هو ثبوت قيام خلافة إسلامية قبل ظهور المهدي وثبوت هذه الخلافة في ذاته هو أساس التنبيه، بصرف النظر عن الآثار النفسية المترتبة على قيام الخلافة قبل ظهور المهدي أو قيامها بظهوره. وعلى الرغم من الفارق الهائل في الأثر بين الأمرين فان الثبوت هو الأمر الذي يهم، ومما لاشك فيه إن إحساس أصحاب الدعوة بسبق الخلافة للمهدي سيعمق من الإحساس بالمسئولية عنها والإعداد لها وتهيئة الواقع لأقامتها، وأن الإحساس بقيام الخلافة بالمهدي قد يحدث نوعاً من ضعف المسئولية عنها، ولكن الأصل والصواب ألا يكون هناك هذا الفرق.

لأن إقامة الخلافة في الحالتين لن تكون إلا بقدر الله. وان إقامتها في الحالتين أيضاً سيتطلب الالتزام بتحقيق أسباب قدرية هي واحدة في كلا الاحتمالين.

ومما يجب الانتباه إليه أيضا أن الخلافة القادمة قبل المهدي بإذن الله لن تكون ظاهرة عابرة، بل إن الأدلة تثبت استقرارها في الواقع بصورة مكررة تحقق استقرار صفة الدوام والبقاء [67].

وهذه المعلومة الثابتة في الخلافة تعطى للإحساس المسلم شعوراً بسهولة الأمر عند الله وان الأمر الإلهي ليس فيه سهل وصعب: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: 82]. وبهذا الاحساس يعلو المسلم فوق مشكلات الواقع وعقباته.

وهذه دلالة المقام حيث ستكون البيعة للمهدي بين الحجر والمقام، أما الحجر فهو حجر إسماعيل، وهو أشد الناس نسباً على الدجال.

والمهدي هو أعظم الناس شدة على الدجال من أمة النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه آخر أئمة الأمة.

وما تعنيه مهمة المهدي من الامتداد بالأمة إلى آخر الزمان، إنما هو – تحديداً– بلوغ الأمة مرحلة قتال الدجال.

1- أخرجه الحاكم في ((مستدركه)) (421/4). وأبو داود في ((الملاحم)) / باب: ما يذكر من ملاحم الروم (4292/107/4) وتقدم.

2 – أخرجه نعيم بن حماد في ((الفتن)) وعزاه ((صاحب حاشية كتاب عقد الدر)) إلى مخطوطة رقم (116، 117) له.

3 – أخرجه أبو داود في ((المهدي)) (105/4/ ح 4286) وأحمد (6 / 316).

1 – ما تقدم من أحاديث تبين أن ظهور المهدي عند موت خليفة ولا يتصور خليفة بغير خلافة (تقدم) وفي أخرى موت ثلاثة من الخلفاء كذلك وتقدم.

ومن هنا يجب أن نفهم في تحديد مهمة المهدي أن قتل الدجال كان مهمة أساسية للمهدي وأن المهدي قد بدأ بالفعل الإعداد لقتله.

ولكن نزول عيسى ابن مريم جاء مساعدة للمهدي علي الدجال. هذا المعنى يجب أن يستقر حتى وإن كان عيسى هو قاتل الدجال. ودليل ذلك أن جميع العلامات المرتبطة بقتل الدجال قائمة بالمهدي كما قال صلى الله عليه وسلم:

" عمران بيت المقدس خراب يثرب "[68]. وخراب يثرب إنما يكون بخروج المهدي بجيشه إلى بيت المقدس لقتال الدجال، كما أن خروج الملحمة وانتصار المسلمين فيها سيكون بقيادة المهدي.

والدليل المباشر على ذلك ما رواه مسلم في الملحمة: " ويفتح الثلث لا يفتنون أبداً فيفتحون قسطنطينية فبينما هم يقتسمون الغنائم، وقد علقوا سيوفهم

بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون – وذلك باطل – فإذا جاءوا الشام خرج فبينما هم يعدون للقتال – يعني قتال الدجال – يسوون الصفوف إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، فإذا عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه

لانذاب حتى هلك ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه في حربته "[69].

كما أن المهدي هو الذي سيقاتل اليهود بعد قتل الدجال وينطق الحجر والشجر، حتى يقول الحجر والشجر يا مسلم ورائي يهودي تعال فاقتله[70].

والبداية الفعلية التي يعرف بها أمر المهدي، ليست حديثاً ولكنها علامة. لا تجتمع في أحد إلا في المهدي، وهي: الخسف بالجيش الذي يريد قتل المهدي، وبعدها يعرف المهدي معرفة عامة. كما قال صلى الله عليه وسلم: " ليؤمن هذا البيت جيش يغزونه حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأوسطهم وينادي أولهم آخرهم ثم يخسف بهم، فلا يبقي إلا الشريد الذي يخبر عنهم "[71]. فإذا رأى الناس ذلك، أتاه أبدال الشام وعصائب أهل العراق فيبايعونه[72].

فهذه هي أولى العلامات التي يعرف بها المهدي لجميع الناس، وفتح القسطنطينية ببني إسحاق الذين سينحازون إلي المهدي وهم سبعون ألفاً وهم الذين سيطلب النصارى من المهدي أن يسلمهم لهم فيأبى[73].

ثانياً: الدجال

---

1 - أخرجه أبو داود في ((الملاحم)) / باب: إمارات الملاحم (4 / 1107 / ح 4294). والحاكم في ((مستدركه)) (4 / 420).

2- أخرجه مسلم في ((الفتن)) / باب: فتح القسطنطينية وخروج الدجال (248/9/ح 2897).

3- أخرجه البخاري في ((الجهاد)) / باب: قتال اليهود (121/6/ح 2926 – الفتح). ومسلم في ((الفتن)) (44/18/6 – النووي).

1 - تقدم..

2- تقدم تخريجه من حديث أم سلمة وقوله: أبدال: جمع بدل وهم الأولياء والعباد سموا بذلك لأنهم كلما مات منهم واحد أبدل بأخر. والعصائب: الخيار منهم.

3- أخرجه مسلم في ((الفتن)) / باب: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل (9 / 268 / ح 2920).

وقبل الدجال يكون الزمان الذي يسبقه..

وتطبيقا لقاعدة التجانس، وقاعدة العلامات الخارجية للعلامة ذاتها وقاعدة الارتباط بين العلامات. فان الله عز وجل جعل الزمن الذي سيسبق الدجال تهيئة كاملة له، فأصبح للزمن السابق للدجال صفتان:

الصفة الأولي: سنوات جوع، وذلك لأن فتنة الدجال فتنة طعام.

الصفة الثانية: سنوات خداع، ذلك لأن فتنة الدجال خداع.

وفي الصفة الأولي:

وفيها ورد عن عائشة رضي الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر جهداً يكون بين يدي الدجال فقالوا: أي المال خير يومئذ؟ قال: "غلام شديد يسقي أهله الماء وأما الطعام فليس". قالوا: فما طعام المؤمنين يومئذ؟ قال: "التسبيح والتكبير والتهليل". [74].

وعندما قال الرسول صلى الله عليه وسلم (أما الطعام فليس) يعنى لا يوجد طعام نهائياً، ولكنه يفسر ذلك بقوله في حديث آخر في فترة ما قبل الدجال: " إن ما قبل الدجال ثلاث سنوات شداد يصيب الناس فيها جوع شديد، يأمر الله السماء في السنة الأولي أن تحبس ثلث مطرها، ويأمر الأرض أن تحبس ثلث نباتها، ثم يأمر السماء في السنة الثانية فتحبس ثلثي مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلثي نباتها، ثم يأمر السماء في السنة الثالثة فتحبس مطرها كله فلا تقطر قطره، ويأمر الأرض فتحبس نباتها كله فلا تنبت خضراء فلا تبقي ذات ظلف إلا هلكت إلا ما شاء الله، قيل فما عيش الناس في ذلك الزمان قال: التهليل والتكبير والتسبيح والتحميد ويجري ذلك عليهم مجرى الطعام " [75].

الصفة الثانية: سنون خداعة:

وفتنه الدجال قائمة على الخداع، وعناصر الخداع واضحة، أهمها: أن تكون ناره جنة، وجنته ناراً [76].

وتتمثل الشياطين في صور الآباء وينصحون الناس بالإيمان به [77]. وأن يكون معه ملكان، ملك عن يمينه وملك عن يساره فإذا قال الدجال أنا ربكم قال الذي على يمينه: كذبت ولا يسمعه إلا الملك الذي على يساره فيقول: صدقت فيسمعه جميع الحاضرين [78].

ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

" إن بين يدي الدجال سنون خداعات...

1- وله شاهد من حديث عبد الله بن عمر أخرجه الحاكم في ((مستدركه)) (511/4) قال هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه.

1- أخرجه أحمد في ((مسنده)) (452/6، 454). وابن ماجة في ((الفتن)) / باب: فتنة الدجال. ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج (1359/2 / ح4077). عزاه صاحب عقد الدرر لمسلم.

2 - أخرجه مسلم في ((الفتن)) / باب: ذكر الدجال بصفته وما معه (287/9/ح 2934). وتفسير ذلك أن الذي معه جنة ونار بطبيعة سحرية. فإذا دخل أحد جنته السحرية يكون قد دخل نار الله الحقيقية ؛ لأنه سيكون مفتوناً، وإذا دخل ناره السحرية يكون قد دخل جنة الله الحقيقة، لأنه سيكون ناجياً.

3 - تقدم.

4 - عزاه صاحب التذكرة لأبي القاسم عبد الله بن محمد البغوي في (10/ المعجم).

يصدق فيها الكاذب...

ويكذب فيها الصادق...

ويؤتمن فيها الخائن...

ويخون فيها الأمين...

ويتكلم فيها الرُّوَيْبِضَة...

قالوا: ما الروييضة يا رسول الله ؟...

قال: الرجل التافه يتحدث في أمر العامة " [79].

وكما كانت العلامة من طبيعة الساعة، كان لكل علامة علامات لها هي – أيضا – من طبيعتها. يعني ما قبل العلامة، والعلامة ذاتها والساعة طبيعة واحدة. ولذلك يجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين علامات الدجال والدجال من خلال عدة أمور.

جفاف نخل بيسان [80]

ونخل بيسان يتميز بأنه أصلح التمر ليكون عجوة، والعجوة من ثمار الجنة وهي حرز من السحر والسم، بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من خشي على نفسه سحراً فليتصبح كل صباح بسبع تمرات " [81]، ولفظه عند البخاري ومن تصبح بسبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر.

والسحر والسم هما طبيعة الدجال ؛ أما السحر فهو أعمال الدجال خارقة شيطانية سحرية..

وأما السم فهو الموت، ولذلك ارتبط الدجال بالموت. فقال صلى الله عليه وسلم: " لا يدخل المدينة الدجال والطاعون " [82].

والتمر بصفة عامة... حرز من أخطر أعمال الدجال، وهو الجوع، بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " بيت ليس فيه تمر جياع أهله " [83].

جفاف بحيرة طبرية

وأول شواهد العلاقة بين الدجال والجدب هو جفاف بحيرة طبرية، كما تقدم عند مسلم في حديث تميم الداري مع الجساسة وسؤال الدجال لهم: أخبروني عن بحيرة طبرية قلنا عن أي شأنها تستخبر ؟ قال: هل فيها ماء ؟ قالوا: هي كثيرة الماء: قال أما إن ماءها يوشك أن يذهب [84]. وجفاف بحيرة طبرية لا يعني إلا ظهور أرض جدباء لا نفع فيها وهي ما يحبه الدجال من الأرض.

1- أخرجه الحاكم في ((المستدرك)) (4 / 466).

2 - أخرجه مسلم في ((الفتن)) / باب قصة الجساسة (304/9/ح 2942).

3 - أخرجه البخاري في ((الطب)) / باب: الدواء بالعجوة للسحر، (249/10/ح 5768، 5769). ومسلم في ((الأشربة)) / باب: فضل تمر المدينة (2/14/5. النووي).

1- أخرجه البخاري في ((فضائل المدينة)) / باب: لا يدخل الدجال المدينة (1880/114/4) من حديث أبي هريرة.

2 - أخرجه مسلم في ((الأشربة)) / باب: إدخال التمر ونحوه للعيال (230/13/5). أبو داود في: ((الأطعمة)) / باب: التمر (361/3/ح 3831).

3 - تقدم.

وبذلك يصبح الناس نتيجة لأعمال الدجال بين الفقر المنسي والغنى المطغي ولذلك يجمع لنا نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم جميع هذه الأعمال في حديث واحد فيقول: " ماذا تنتظرون...

أفقراً منسياً...

أم غنى مطغياً...

أم الموت فليس بعد الموت عمل...

أم الدجال فشر غائب ينتظر...

أم الساعة فالساعة أدهى وأمر " [85].

وقد ذكر هذا الحديث في تفسير قول الله عز وجل في سورة القمر: ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: 46] على لسان النبي

صلى الله عليه وسلم ليتحقق الارتباط بين الساعة وعلاماتها.

وباعتبار أن الفتن المتفرقة في الدنيا تجتمع بطبيعتها في فتنة الدجال، فقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الفتن في أربعة أصناف:

الفتن ما ظهر منها وما بطن

فتنة المحيا والممات.

عذاب القبر فتنة المسيح الدجال [86].

ولما كان النخل علامة على امتناع ظهور الدجال، حتى أن الرسول صلى الله عليه وسلم وضع جريدتين من النخل على قبر يعذب أصحابه فقال: يعذبان وما يعذبان في كبير، بلى إنه لكبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر كان لا يستتر من بوله [87]. وعندما يضع النبي صلى الله عليه وسلم الجريدتين فإنما جعل لكل واحد فرعا وجعل بقاء الفرع أخضر دليلاً على طيب الأرض ورفع العذاب.

1- تقدم، ولفظه: " بادروا بالأعمال سبعاً، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً أو غنى مطغياً أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً أو موتاً مجهزً أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر ".

2- أخرجه البخاري في ((الأذن)) / باب: ما يتخير من الدعاء بعد التشهد وليس بواجب (373/2/ح 835 – الفتح) وأيضا في ((الجنائز)) / باب: التعوذ من عذاب القبر (284/3/ح 1377). ومسلم في ((الصلاة)) / باب: التشهد في الصلاة (119/4/2 – النووي).

1 - أخرجه البخاري في ((الجنائز)) / باب: عذاب القبر من الغيبة والبول (286/3/ح 1378). ومسلم في ((الطهارة)) / باب: نجاسة البول (200/3/1. النووي). قال الخطابي رحمه الله في ((معالم السنن)) تعليقاً على الحديث: انه من التبرك بأثر النبي صلى الله عليه وسلم **ودعاءه** بالتخفيف عنهما وكأنه جعل مدة بقاء النداوة فيها حداً لما وقعت به المسألة من تخيف العذاب عنهما ليس ذلك من أجل أن في الجريد الرطب معنى ليس في اليابس والعامة في كثير من البلدان تغرس الخوص في قبور موتاهم واراهم ذهبوا إلى هذا وليس لما تعاطوه من ذلك وجه.

قال الألباني في ((أحكام الجنائز)) (201/11)). يؤكد كون وضع الجريدة على القبر خاصاً وان التخفيف لم يكن من أجل نداوة شقها أمور: حديث جابر رضي الله عنه في ((صحيح مسلم)) (231/8 – 236) وفيه قال صلى الله عليه وسلم: " إني مررت بقبرين يعذبان. فأحببت شفاعتي أن يبرد عنهما ما دام الغصنان رطبين " فهذا صريح في أن رفع العذاب إنما هو بسبب شفاعته صلى الله عليه وسلم ودائه لا بسبب النداوة.

أما جعل النبي فرعين من النخل فلأجل أن النخل حرز من فتنة الدجال وفتنة عذاب القبر من فتنة الدجال. ولذلك جعل الله على قبر هود شجرة من أراك وهو أطيب الشجر ليدل على طيب الأرض التي دفن فيها نبي الله هود عليه الصلاة والسلام [88].

ويضاف إلى أدلة الارتباط بين علامة العلامة والعلامة ذاتها.. خروج الدجال من غضبه يغضبها. بدليل هذا الحديث الطويل عن ابن عمر رضي الله عنه في قصته مع ابن صياد وفيه: " وجاء – أي ابن عمر – حتى دخل على أم المؤمنين محدثها فقالت: ما تريد إليه ؟. ألم تعلم أنه قد قال – أي النبي صلى الله عليه وسلم – إن أول ما يبعثه على الناس غضب يغضبه " [89].

فالدجال والغضب طبيعة واحدة ؛ لأن الدجال عندما وُلد في صورة ابن صياد من أبوين يهوديين. قال الحديث: ولد لهما أضر شيء ولا نفع فيه [90]. ونفس التعبير واللفظ هو الذي قاله النبي: " الغضب أضر شيء نفعاً " [91].

ومعنى الحديثين هو استحالة النفع في الدجال والغضب، لأن الرسول

صلى الله عليه وسلم يقول في وصف الدجال: (أضر شيء).

أما الحديث المتعلق بوصف الغضب بأنه: (أضر شيء) فمعناه أن أي توهم للنفع في الغضب هو أضر شيء.

وكما جمع الدجال الشر كله. كذلك كان الغضب. وفي ذلك يسأل الصحابي النبي صلى الله عليه وسلم أن يوصيه ماذا يباعدني من غضب الله فقال: " لا تغضب " [92].

فيقول الصحابي وهو جارية بن قدامة [93]. بعد وصية النبي صلى الله عليه وسلم فإذا الغضب يجمع الشر كله [94].

---

2 – حتى لا يظن أن هوداً دفن في موضع عذاب. فان الله طيب له مدفنه بإنبات أطيب الشجر فيه وهو الأراك.

3– أخرجه مسلم في ((الفتن)) / باب: ذكر ابن صياد (280/9/ح 3932). من حديث ابن عمر عن حفصة.

1 – تقدم.

2 – رواه أحمد ح ص: 40، 50، 52.

3 – أخرجه أحمد (175/2). وابن حبان في ((صحيحه)) (257/1/ح 296). (الإحسان) من حديث عبد الله بن عمرو. وقال الهيثمي في ((المجمع)) (69/8): رواه أحمد وفيه ابن لهيعة وهو لين الحديث، وبقية رجاله ثقات.

4 – قال ابن رجب: ((وفي رواية له أن جارية بن قدامة قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم فذكره. فهذا يغلب على الظن أن السائل هو جارية بن قدامة ولكن ذكر الإمام أحمد عن يحيى القطان أنه قال: هكذا قال هشام: يعني أن هشاماً ذكر في الحديث أن جارية سأل النبي صلى الله عليه وسلم قال يحيى: وهم يقولون أنه لم يدرك النبي صلى الله عليه وسلم وكذا قال العجلي وغيره: أنه تابعي وليس بصحابي.

5 – [الحديث مرسل] أخرجه مالك (691/2). وأحمد (373/5) من حديث رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. وقال ابن رجب: يشهد لما ذكرناه أن الغضب جماع الشر كله. قال جعفر بن محمد: الغضب مفتاح كل شر وقيل لابن المبارك: اجمع لنا حسن الخلق في كلمة ؟ قال: ترك الغضب، وكذا فسر الإمام= =أحمد وإسحاق بن راهويه حسن الخلق بترك الغضب. وقد روى ذلك مرفوعاً، أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب ((الصلاة)) من حديث أبي العلاء بن الشخير أن رجلاً آتى النبي صلى الله عليه وسلم من قبل وجه فقال: يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ قال: حسن الخلق، ثم آتاه من بعده – يعني من خلفه – فقال يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " مالك لا تفقه حسن الخلق هو ألا تغضب إن

ويقول ابن رجب في تفسير الحديث: ويشهد لما ذكرناه أن الغضب يجمع الشر كله.

وكما يخرج الدجال من خلال الغضب وهو جماع الشر فإنه يخرج من الكذب وهذا هو الأمر العجيب.

وانظر كيف يخرج الدجال بكذبة.

إذ يقول النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذكر الملحمة: "... ويفتتح الثلث لا يفتنون أبداً فيفتحون قسطنطينية فبينما هم يقسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيه الشيطان أن المسيح قد خلفكم في أهليكم فيخرجون وذاك باطل، فإذا جاءوا الشام خرج " [95].

وفي رواية: " أن المسيح قد خرج في بلادكم إلا وهي كذبة " [96].

فيتبين من الحديث برواياته أن الشيطان أو الصريخ سيكذب ويقول ظهر المسيح فيذهب المسلمون ليجدوا أن الصريخ كاذب ولكنهم وهم يعلمون كذبه يخرج فعلاً، فيكون قد خرج من كذبه كما يخرج من غضبه.

الدجال بين الملح والدخان

وبصفة أساسية فإن للدجال علامتين تدلان علي نفي النفع والخير فيه. وهما دليل واحد على التجانس بين العلامة وعلامة العلامة.

الدجال والملح:

وأول شواهد العلاقة بين الدجال والملح هو:

إن الدجال يأتي وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة فينزل بعض السباخ التي تلي المدينة فيخرج إليه رجل [97]..

لذلك ينتظر الدجال منافقين المدينة عند سبخة [98] من الأرض وهي الأرض التي يعلوها الملح [99].

ثم يأتي الدليل المباشر على التجانس بين طبيعة الدجال والملح: وهو حديث قتل الدجال عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق فيخرج إليه جيش من أهل المدينة يومئذ فإذا تصافوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم فيقول المسلمون: لا والله لا نخلى بينكم وبين إخواننا فيقاتلونهم فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، ويقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلث لا يفتنون أبداً فيفتتحون قسطنطينية فبينما هم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح الشيطان أن المسيح قد خلفكم في أهليكم فيخرجون وذلك باطل فإذا جاءوا الشام خرج فبينما هم يعدون للقتال يسوون الصفوف إذا

استطعت " وهذا مرسل، [قلت] أبو العلاء بن الشخير لم يثبت أن له رؤية أو سماعاً.

1 – رواه مسلم، في الفتن، باب فتح القسطنطينية، وخروج الدجال، (91/ 248 / ح 2897).

2 – أخرجه ابن ماجة في ((الفتن)) / باب: الملاحم (2/1370/ح 4094) وله شاهد من حديث كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده. أخرجه الحاكم في ((مستدركه)) (4/ 483). وتقدم.

1 – تقدم، وهو في المسند والمستدرك وصححه.

2 – السبخة والسباخ: الأرض السبخاء هي الأرض التي تعلوها الملوحة فلا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً.

3 – تقدم، وغير بمعناه وألفاظه.

أقيمت الصلاة نزل عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم فأمهَّم فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء فلو تركه لانذاب حتى يهلك ولكن يقتله بيده فيريهم دمه في حربته " [100].

وأصل التجانس بين الدجال والملح هو افتقاد الشر لوجود أصلي. ومن هنا كان الذوبان مثالاً للشر، وعقوبة عليه، وذلك باعتبار أن الجزاء من جنس العمل ولذلك كان الذوبان والشر المطلق جنساً واحداً وهو العدم [101].

وقد عبر القران عن هذا المال في مثل المشرك:

﴿ حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: 31].

يقول سيد قطب:

وهي صورة صادقة لحال من يشرك بالله فيهوي من أُ فق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء، إذ يفقد القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها، قاعدة التوحيد ويفقد المستقر الآمن الذي يثوب إليه فتخطفه الأهواء تخطف الجوارح وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح وهو لا يمسك بالعروة الوثقى. ولا يستقر على القاعدة الثابتة التي تربطه بهذا الوجود الذي يعيش فيه.

وهناك ملاحظة خطيرة خاصة بذوبان الدجال كالملح وهي أن الذوبان عقوبة من أراد بالمدينة سوءا أو كيداً، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يكيد أهل المدينة أحداً إلا انماع كما ينماع الملح في الماء " [102]. وقال: من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء [103].

وواضح من الأحاديث أن صورة الإذابة كما يذوب الملح في الماء هي أشد صور الجزاء ولذلك ضربت مثلاً لمن أراد سوءاً أو كيداً بالمدينة. وهي الصورة التي سيقتل بها الدجال. وبذلك يضاف إلى طبيعة الدجال المتجانسة مع الملح سبباً آخر للذوبان وهو عداء الدجال للمدينة.

ويتساوى مع الملح في دلالته على طبيعة الدجال الدخان.

الدجال والدُّخَان:

وشواهد هذه الدلالة تبدأ منذ ولد ابن صياد وهو الصورة الإنسانية للدجال أو المثل الكوني له.

عن جابر بن عبد الله انه قال: إن امرأة من اليهود بالمدينة ولدت غلاماً ممسوحة عينيه طالعة، فأشفق رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون الدجال فوجده من القطيفة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مالها ؟ قاتلها الله لو تركته لبين. وذكر الحديث أن رسول الله كرر ذلك ثلاث مرات وفي كل مرة أمة هي التي تتنبه إلى رسول الله وتحذر ابن صياد. حتى قال له في الثالثة: خبأت لك خبيئة وكانت هي كلمة (الدخان) [104].

---

1 – رواه مسلم في كتاب الفتن 34. وتقد م قريباً .

2 – يراجع كتاب شفاء العليل لابن القيم تفسير قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الخير بين يديك والشر ليس إليك ."

1 – رواه البخاري عن سعد.

2 – رواه أحمد ومسلم، وابن ماجة عن أبي هريرة، ومسلم عن سعد.

1 – أخرجه البخاري في الجهاد والسير ومسلم في الفتن.

وتتوالى شواهد دلاله الدخان علي طبيعة الدجال حتى آخر أيامه حيث سيحاصر المؤمنين في جبل الدخان [105].

عن جابر بن عبد الله أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يخرج الدجال في خفة من الدين وأدبار من العلم وله أربعون ليلة يسيحها في الأرض اليوم منها كالسنة واليوم منها كالشهر، واليوم منها كالجمعة، ثم سائر أيامه كأيامكم هذه..... فيقول للناس: أنا ربكم وهو أعور، وان ربكم عز وجل ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافر، مهجاة يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب، يرد كل ماء ومنهل إلا المدينة ومكة حرمهما الله عز وجل عليه وقامت الملائكة بأبوابها معه جبال من خبز والناس في جهد إلا من اتبعه ومعه نهران أنا أعلم بهما منه، نهر يقول الجنة ونهر يقول النار فمن أدخل الذي يسميه الجنة فهو النار، ومن أدخل الذي يسميه النار فهو الجنة قال: وتبعث معه شياطين تكلم الناس ومعه فتنة عظيمة يأمر السماء فتمطر فيما يري الناس فيقول للناس: أيها الناس هل يفعل مثل هذا إلا الرب ؟ قال: فيفر الناس إلى جبل الدخان في الشام فيحاصرهم فيشتد حصارهم ويجهدهم جهداً شديداً ثم ينزل عيسى عليه السلام فينادي من السحر فيقول: يا أيها الناس ما يمنعكم أن تخرجوا إلى هذا الكذاب الخبيث فيقولون: هذا رجل جِنّي، فينطلقون فإذا بعيسى عليه السلام فتقام الصلاة فيقال له: تقدم يا روح الله فيقول ليتقدم إمامُكم فيصلي بكم فإذا صلى الصبح خرج إليه قال: فحين يرى الكذابُ ينماث كما ينماث الملح في الماء فيمشي إليه فيقتله حتى أن الشجرة والحجر ينادي: يا روح الله هذا يهودي فلا يترُكُ ممن كان يتبَعُهُ أحداً

إلا قتله ".

أما تفسير دلالة الدخان على طبيعة الدجال فهو الأمر الذي يعود بنا إلى معنى كلمة (دخان) وخصوصاً إذا علمنا أن الدلالة مرتبطة بالاسم، حيث أن البداية كانت مجرد كلمة مخبئة من رسول الله صلى الله عليه وسلم له، وفي النهاية كانت مجرد اسم للجبل: (جبل الدخان).

ولكننا نفاجأ بتفسير كلمة: (دخان) لنجدها علامة الدجال من بدايته

إلى نهايته.

وكما جاء في لسان العرب:

فالدخن: الرجيع من الطعام الذي يتجنبه الناس.

دخان: جدب.

الدخان: الجوع ليبس الأرض من الجدب وارتفاع الغبار فشبه غبرتها بالدخان حتى قيل لسنة المجاعة: (سنة غبراء).

الدخان: الشر وضعت العرب الدخان موضع الشر إذا علا يقولون: كان بيننا أمر ارتفع له دخان.

الدخن: رجل دخن متغير الدين والعقل والحسب.

دخن الخلق: ساء وفسد وخبث.

---

2 - أخرجه أحمد في ((مسنده)) (367/3). وذكره الهيثمي في ((المجمع)) (344/7). وقال رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح.

الدخن: الغم، ليلة دخنانه: أي شديدة الغم.

الدخن: الفتنة ستكون فتنة دخنها من تحت قدم رجل...

الدخن: هدنة على دخن شبهها بدخان الحطب لما بينهم من الفساد الباطن تحت الصلاح الظاهر.

ومن تحميل كلمة الدخان ومشتقاتها يتبين التوافق بين الكلمة والدجال.

فمن حيث فتنة الدجال هي فتنة الجوع. كان الدخان: الرجيع من الطعام الذي يتجنبه الناس.

وكان الدخان: الجدب.

وكان الدخان: هو الجوع.

ومن حيث أن فتنة الدجال هي فتنة الشر.

كان الدخان: هو الشر الذي يعلو.

وكان الدخان: السواد.

وكان الدخان: هو الغيم.

وكان الدخان من حيث الخلق: هو السوء والفساد والخبث.

ومن حيث أن الدجال فتنة عن الدين.

كان الدخان: هو الفتنة.

وكان الدخن: هو تغير الدين والعقل والحسب.

ومن حيث أن الدجال علامة خداعية.

كان الدخن هو الخداع: لما في حديث هدنة على دخن [106]، وصفت بذلك لما بينهم من الفساد الباطن تحت الصلاح الظاهر يعني الخداع.

وقد اجتمعت عناصر تفسير الدخان في علاقاته بالدجال بصورة واقعية في عدة علاقات قامت بين الدجال والشياطين والذهب والنساء واليهود.

وتبعية الشياطين للدجال لها قاعدة... وهي ارتباط المكانة بدرجة الإفساد [107].

وبتلك القاعدة يصبح للدجال على الشياطين الرئاسة والسيطرة ؛ ذلك أن ولاء الشياطين للشر ولمن يحقق أكبر قدر منه.

أما تبعية النساء فهي من تبعية الشياطين... وذلك باعتبار طبيعة العلاقة بين النساء والشياطين [108].

---

1 – عند أحمد (403/5). وأبو داود (59/2). والبغوي (9/15)، من حديث حذيفة واصلة في الصحيحين ولفظ أبي داود قلت: يا رسول الله ما الهدنة على دخن ؟ قال: " لا ترجع قلوب أقوام إلى ما كانت عليه " وعند البخاري ومسلم وهل بعد هذا الشر من خير ؟ قال: " نعم وفيه دخن " قال: وما دخنه ؟ قال: " قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر "... الحديث.

1 – انظر كتاب: ((عندما ترعى الذئاب الغنم)) للكاتب.

2 – المصدر السابق.

وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " منزل الدجال في هذه السبخة فيكون أكثر من يخرج إليه النساء – حتى أن الرجل ليرجع إلى زوجته وإلى أمه وإلى ابنته وأخته وعمته فيوثقها رباطاً مخافة لأن تخرج إليه " [109].

يضاف إلى طبيعة العلاقة بين النساء والشياطين، علاقة النساء بالذهب، لأن حب النساء للذهب حقيقة نفسية ثابتة، قال الله فيها: ﴿ أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف: 18].

وفي النهاية فإن أهم ما يفسر تبعية النساء للدجال هو اقتران طبيعتهم من الفتنة. ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " سبحان الله، ماذا أنزل الليلة من الخزائن؟ وماذا انزل الله من الفتن ؟ من يوقظ صواحبات الحجر لكي يصلين رُبَّ كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة " [110].

واليهود هم الذين ارتبطوا بفتنة النساء ارتباطا قائما بقيام الدنيا، كما في الحديث: " اتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فان فتنة بني إسرائيل كانت في النساء " [111].

واليهود هم الذين عبدوا الذهب: ﴿ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ ﴾ [طه: 88].

وعلى هذا الأساس تكون فتنة الدجال غير منفصلة عن الواقع البشري الممتد حتى ظهوره... وان تسلط الدجال وتبعية الشياطين والنساء والذهب له هي في حقيقتها عقوبة لذنوب عاش عليها الناس طول حياتهم.

وبهذا الاعتبار جاء تحذير جميع الأنبياء من الدجال كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: " ما من نبي إلا أنذر قومه الدجال " [112] فتكون دلالة هذا الإنذار هي ما يتعلق بفتنة الدجال من فتن. دون أن يظهر بنفسه.

وهذا ما علَّمنا إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما امرنا أن نتعوذ دبر كل صلاة من الفتن فقال:

" اللهم أني أعوذ بك من الفتن ما ظهر منها وما بطن،
وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات،
وأعوذ بك من عذاب القبر،
وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال " [113].

وحتى ما بعد الدجال سيبقى تسلط الشياطين على الناس... وبنفس القاعدة وهي أن التسلط يكون امتدادا لذنب وقع فيه هؤلاء الناس وبقوا عليه [114]. مثل الناس الذين ستقوم عليهم الساعة. وقال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

3 – أخرجه أحمد في ((مسنده)) (67/2). وذكره الهيثمي في ((المجمع)) (346/7) وقال: في الصحيح بعضه، وفيه إسحاق وهو مدلس. قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

1 – أخرجه البخاري في ((العلم والعظة بالليل)) (253/1/ح 115) وأيضاً في الفتن / باب: لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه (22/13/ح 7096).

2 – أخرجه مسلم في ((الذكر والدعاء والاستغفار)) / باب: الرقاق (55/1/6 – النووي).

3 – أخرجه البخاري في الفتن / باب: ذكر الدجال (96/13 , 97/ ح 7127).

1 – تقدم.

" فيتمثل لهم الشيطان فيقول إلا تستجيبون ؟ ! فيقولون: فما تأمرنا ؟ يأمرهم بعبادة الأوثان " [115].

هكذا.. ألا تستجيبون ؟ ! ودون أن يعلموا الأمر يعلنون الخضوع. فما تأمرنا ؟ وهذه هي العبودية، الخضوع المطلق وعلى الغيب للشيطان، بسبب عبوديتهم السابقة والتي أصبحوا بها كالبهائم والحمر وعقول الطير وأحلام السباع كما وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن أهم الذنوب التي يتحقق بها تسلط الشياطين وتبعية الدجال ذنب التقليد، لأن هذا الذنب هو الذي امتد به الكفر حتى وقت الدجال وكان سبب بقائه وأصبح تقليد الآباء في الشرك هو نفسه صورة تسلط الشياطين.

كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الشياطين تتبع الدجال فيقول: إن من فتنة الدجال أن يقول للأعرابي أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان يا بني اتبعه فانه ربك " [116].

وتبقي ملاحظة منهجية في الحديث وهي صفة الرجل الذي يكلمه الدجال. إنه أعرابي... ولهذه الصفة معناها.

وفي تفسير الحديث يقول عبد الله بن مسعود عندما ذكر عنده الدجال:

" يفترق الناس عند خروجه ثلاث فرق: فرقة تتبعه وفرقة تلحق بأرض آبائها بمنابت الشيح وفرقة شط الفرات " [117].

وبذلك يعتبر عبد الله بن مسعود منابت الشيح بأنها أرض البادية. وعندما قال أرض الآباء، فيكون هذا معناه أن الأعراب هم الذين سيلحقون بالبادية. وهي حالة نفسية يدخل فيها الإنسان عندما يشعر بالخوف. أي يأوي إلى أصله ومنبته وبيئته الأصلية. ولكنها فرقة هالكة [118] ؛ لأنه من الواجب عليهم أن يأووا

إلى الله عز وجل.

عيسى والدجال:

وبمجرد أن يقتل الدجال عل يد عيسى ابن مريم عليه السلام، تكون قد حسمت قضية الربوبية لله ونفت عمن سواه، فعيسى الذي يزعمون أنه إله من دون الله ينفي هو ذلك بنفسه فيقتل بيده أكبر من زعم هذا الزعم لنفسه. ليتحقق أكبر إنكار لأكبر كذبة ؛ لأن الإنكار ترجع درجاته إلى أمرين:

1. الشخص الذي يُنكِر...
2. الأسلوب الذي يُنكَر به...

---

2 – مثل ذنب الربا الذي قال الله فيه:(الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس).

3 – مسلم، كتاب ((الفتن)) / باب: خروج الدجال ومكثه في الأرض (9/301/ح 2940).

4 – ابن ماجة وإسناده قوي واللفظ له.

1 – ذكره صاحب ((عقد الدرر)) (2: 48)، لا وقال: رأيت بخط أهل العلم بالحديث ولم يعزه لأحد.

2 – لأن الدجال سيتبعهم إليها.

وعندما يكون الشخص الذي ينكر هو نبي الله. والأسلوب هو القتل. يكون هذا دليل على غضب الله على الدجال ؛ ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " اشتد غضب الله على عبد قتله نبي أو قتل نبياً " [119].

وهذا يفسر اختصاص عيسى بقتل الدجال.

واختصاص عيسى ابن مريم بقتل الدجال يتبع قاعدة عامة في الاختصاص وهي التناسب.

والتناسب: هو مدى التضاد بين عيسى ابن مريم والدجال.

ولهذه القاعدة نضرب مثالاً معروفاً. وهو اختصاص النبي صلى الله عليه وسلم بالشفاعة دون عيسى ابن مريم.

لأن أهل الموقف عندما يذهبون لعيسى الذي لم يذكر له ذنب. مما يتوهم منه الدليل علي استحقاق عيسى للشفاعة [120]**، ولكن الشفاعة إنما تكون للبشر وهم موقوفون في يوم الحشر بذنوبهم. فيصبح مقام مغفور الذنب أنسب للاستحقاق من مقام الذي لم يذكر له ذنب ؛ لأن مغفور الذنب تحقق فيه اسم الله الغفور بأتم صورة: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً(2)وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً(3) ﴾ [الفتح:1، 3].**

وتحقيق اسم الله الغفور بهذه الدرجة هو أساس استحقاق رسول الله صلى الله عليه وسلم للشفاعة في الموقوفين بذنوبهم.

وبهذه القاعدة نشأ التناسب بين عيسى الذي أثبت لنفسه كل صفات

العبودية لله علي الرغم من ادعاء الضالين له الألوهية وبين الدجال الذي ادعى لنفسه صفات الألوهية. وقد اجتمعت له كل صفات النقص والقبح والشر والضرر الذي لا نفع فيه.

نسل إسماعيل والدجال:

وبنفس قاعدة التناسب المحققة للحكمة في استحقاق عيسى لقتل الدجال كان نسل إسماعيل عليه الصلاة والسلام أشد أمة النبي صلى الله عليه وسلم علي الدجال... فلماذا ؟

إن الإجابة على هذا السؤال لها مقدمة:

- **إن أفعال الآباء سارية في الأبناء.**

---

1 – أخرجه الحاكم في ((مستدركه)) (275/4) ولفظه عن أبي هريرة: " اشتد غضب الله على رجل قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتد غضب الله على رجل سُمي ملك الأملاك، لا ملك إلا الله عز وجل ". وأحمد في ((مسنده)) (317/2) بلفظ: " اشتد غضب الله عز وجل على قوم فعلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حينئذ يشير إلى رباعيته، وقال: اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً "
(492/2) بلفظ الذي عند الحاكم.

2 – أخرجه البخاري في ((التفسير)) / باب: (ذرية من حملنا مع نوح انه كان عبداً شكوراً) (4712/247/8). ومسلم في ((الشفاعة)) / باب: منه (65/3 – 69. النووي). وأحمد في ((مسنده))
(435/2، 436) وابن أبي عاصم في ((السنة)) (811) والترمذي في ((صفة القيامة)) / باب: فيما جاء في الشفاعة (2434/622/4) وأبو عوانة في ((مسنده)) (170/1، 175) والبيهقي في ((البعث والنشور))
(249) ومن طريق: أبي حيان عن أبي زرعة، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – به. قال الترمذي: حسن صحيح.

ودليل ذلك معروف وهو قصة اليتيمين الواردة في سورة الكهف.

- إن طبيعة العمل الصالح من الآباء يسري في الأبناء كجزاء من جنس
- العمل، ودليل ذلك معروف وهو قول الله عز وجل: ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾
- [النساء: 9].

ووضح من الآية أن تقوى الله والقول السديد هما اللذان يحفظان الذرية الضعاف بإذن الله.

هذه هي القاعدة أما التطبيق في شدة إسماعيل علي الدجال.

إن بني تميم أشد أمة النبي صلى الله عليه وسلم على الدجال.

وأن النبي صلى الله عليه وسلم من بني تميم وهم قومه وأقرب النسب إلى إسماعيل. ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يفرح بصدقاتهم ويقول: " هذه صدقات قومي. وهم أشد أمتي علي الدجال "[121].

- وفقاً لهذه المقدمات والقواعد إلى إسماعيل، لنجد أن حياة إسماعيل كانت أشد الأفعال على الدجال، حتى سرى فعل إسماعيل في نسله كجزاء من جنس العمل.

فمن البداية نرى تجاوز إسماعيل وأمه فتنة الجوع والموت، عندما ترك

(إبراهيم) عليه السلام هاجر وابنها في وادي غير ذي زرع قالت له: آلله أمرك بهذا ؟ فأشار إليها أي نعم، قالت: إذاً لا يضيعنا[122].

ومن تحت قدم إسماعيل تتفجر بئر زمزم ؛ لتكون حياة إسماعيل وهاجر وتبقى البئر حياة للأمة. وتبقى فاعليتها القدرية خيراً مطلقاً: " ماء زمزم لما شُرب له "، فيجتمع في ماء البئر كل النفع فيتقابل الخير المطلق مع شر الدجال المطلق الذي لا نفع فيه. ثم يتجاوز إسماعيل الموت مرة أخرى. عندما يأمر الله إبراهيم أن يذبح ولده إسماعيل:(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ 102 فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ 103 وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ 104 قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ 105 ﴾ [الصافات: 102، 105].

ثم يكبر إسماعيل ليذلل الله الخيل لإسماعيل ليفتح الباب الدائم للخير ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبرنا الخبرين فقال: إن الخيل كانت موحشة فذللها الله لإسماعيل عليه الصلاة والسلام، وبذلك كان إسماعيل بداية لتسخير الخيل، وهذا هو الخبر الأول، وكان: " الخير معقود في نواصي الخيل إلى يوم القيامة "، وهذا هو الثاني وبذلك ارتبط أسباب الخير بإسماعيل.

---

1 – تقدم تخريجه.

2 – أخرجه البخاري في ((أحاديث الأنبياء)) (6/455/ح 3364. الفتح) النسائي في ((الكبرى)) في ((المناقب)) مختصراً (5/100/8379) وعبد الرازق في ((مصنفه)) (5/105/9107) وابن حجر في ((تفسيره)) مختصراً (1/430) جميعاً من طريق معمر عن أيوب وكثير بن كثير عن سعد بن جبير عن عباس. وعزاه السيوطي في ((الدر)) (1/233) إلى أحمد وعبد بن حميد وبن أبي حاتم والجندي وابن مردويه والحاكم والبيهقي في الدلائل.

حتى أن هناك أثراً [123] يقول إن الحلقة وُضعت على رقبة الذبيح.. حلقة من النحاس [124]... تماماً مثل التي توضع على رقبة الشاب الذي قتله الدجال.

وهكذا يتجاوز إسماعيل من قبل – والشاب في آخر الزمان – فتنة القتل والموت، فلا يضرهما فتنة الموت والدجال بعد ذلك.

ويبقى فضل (إسماعيل عليه السلام) في ذريته. حتى يلتقي مع فضل شاب آخر الزمان.

إن موقف إسماعيل ليس موقفاً عارضاً ولكنه موقف باق.

وبقاؤه من خلال ذرية إسماعيل أيسر أسباب البقاء لأن الموقف باقٍ مع بئر زمزم ومع الكعبة ومع السعي بين الصفا والمروة.

فكل هذه الأمور هي آثار هذا الموقف الباقية حتى آخر الزمان.

فكيف لا يمتد الموقف نفسه حتى الدجال.

ليكون نسل إسماعيل أشد الأمة على هذا الدجال – وهم المنتصرون على فتنة الجوع والموت – أصحاب الموقف الأصليين.

لذا كان التقابل مع طبيعة هذه الآثار وعمل الدجال.

فالدجال لا يدخل مكة، لا يدخل البلد الذي فيه بئر زمزم والكعبة، والصفا والمروة.

ويبلغ التقابل مداه بين هذه الآثار وطبيعة عمل الدجال في بئر زمزم.

فأعمال الدجال السحرية تعكس قصد الناس.

فمن يقصد شيئاً من عمله يجد عكسه.

ومثال ذلك يقصد جنته ويجدها ناراً على وجه الحقيقة.

أما زمزم فأثرها تابع لمقاصد من يشربها.

سبحان الله...

زمزم لما شربت له، الماء واحد والقصد يتحقق من شربها بإذن الله.

وهذه هي أفعال الله سبحانه وكمالها.

وهذه هي أفعال الدجال ونقائصها.

أما دليل بقاء الفضل في ذرية (إسماعيل) وأهم شواهده أن تكون ذريته هم أولى الناس بالحرية والنجاة من الرق ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرض على عتق أي عبد أو جارية من نسل إسماعيل، وكان يقول: " من قال لا إله

إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحي ويميت وهو على كل شيء قدير عشر مرات كأنما أعتق رقبة من ولد إسماعيل " [125].

لأن مضمون هذا الذكر هو مضمون الخير التام.

---

1 – أورد ابن حجر في فتح الباري قول حاتم عن السدي أثر الحلقة النحاس علي الذبيح.

2 – ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره في تفسير قوله تعالى: (وفديناه بذبح عظيم). بتحقيقنا.

1 – أخرجه البخاري في ((الدعوات)) / باب: فضل التهليل (204/11/ ح 6404 الفتح). ومسلم في ((الذكر والدعاء)) / باب: فضل والتسبيح والدعاء (17/6/ ح 16، 17. النووي).

التوحيد، ونفي الشرك وإثبات الملك كله لله. وإثبات الحمد كله لله وإثبات الإحياء والإماتة والقدرة لله وحده.

واستحقاق ذرية إسماعيل للعتق والبعد بهم عن الرق جزاء من طبيعة فعلهم، وهم أشد الأمة على الدجال.

هم الذين لا ينكسرون أمام فتنة الموت، ولا يضعفون أمام فتنة الجوع.

ولا يجرون وراء جبال الخبز والقمح تاركين الدين والعقيدة الصحيحة، فلا يجب أن يكون هؤلاء الأحرار عبيداً بيننا.

كيف... وهم السادة الأخيار.

الدجال وابن صياد:

ولكننا لا يمكن ان نتجاوز علامة الدجال إلا بذكر المشكلة المتعلقة بالعلاقة بين الدجال وابن صياد وهي المشكلة الخلافية المشهورة الباقية من تلك العلامة.. هل الدجال هو ابن صياد أم غيره ؟.

وبتطبيق مفهوم الإظهار على علامات الساعة، نفاجأ بحقيقة خطيرة للغاية وهو أن هناك مثال كوني للدجال كحقيقة غيبية.

وهذا المثل هو الذي يحسم المشكلة الخلافية الخاصة بالعلاقة بين الدجال وابن صياد وأصل المشكلة أن هناك أحاديث صحيحة تؤكد أن ابن صياد هو بنفسه الدجال وأحاديث صحيحة أخرى تبين أنه ليس الدجال.

ومثال الأحاديث التي تؤكد أنه هو الدجال:

- عن محمد بن المنكدر قال رأيت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما
- يحلف بالله أن ابن صياد الدجال. قال: قلت: أتحلف بالله ؟ قال: فإني سمعت عمر يحلف بالله على ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ينكره النبي صلى الله عليه وسلم.
- عن نافع مولى عبد الله بن عمر أن عمر رضي الله عنهما كان يقول:
- " والله ما أشك أن المسيح الدجال ابن صياد ".
- عن نافع قال ابن عمر: لقيته مرتين – أي ابن صياد – فلقيته مع قومه، فقلت لبعضهم، هل تحدثون إنه هو ؟ قال: " لا والله، قال: قلت: كذبتني والله لقد أخبرني بعضكم أنه لن يموت حتى يكون أكثركم مالاً وولداً فكذلك هو زعموا اليوم، قال فتحدثنا ثم فارقته، قال: فلقيته أخرى وقد نفرت عينه، قال: فقلت متى فعلت عينك ما أرى ؟ قال: لا أدري. قال: قلت: لا تدري وهي في رأسك، قال: إن شاء الله خلقها في عصاك هذه، قال: فنخر كأشد نخير حمار سمعت، قال: فزعم بعض أصحابي أني ضربته بعصا كانت معي حتى تكسرت وأما أنا فوالله ما شعرت. قال وجاء حتى دخل على أم المؤمنين، فحدثنا،
- فقالت: ما تريد إليه ؟ ألم تعلم أنه قد قال: إن أول ما يبعثه على الناس غضب
- يغضبه. ".

أما الأحاديث التي تنفي كون ابن صياد هو الدجال فأهمها: حديث تميم الداري الذي رأى الدجال موثوق في أحد الجزر.

وكما اختلفت الأحاديث الصحيحة كذلك كان رأي العلماء.

قال الخطابي: قد اختلف الناس في أمر ابن صياد اختلافاً شديداً وأشكل أمره حتى قيل كل قول. ثم قال: والذي عندي أن هذه القصة إنما جرت معه أيام مهادنته صلى الله عليه وسلم اليهود وحلفاءهم، وذلك أنه بعد أن قدم المدينة كتب بينه وبين اليهود كتاباً صالحهم فيه على ألا يهاجروا، وأن يتركوا على أمرهم وكان ابن صياد منهم أو دخيلاً فيهم.

وحاصل كلام الخطابي أنه لا يرى أن ابن صياد هو الدجال بل هو من الكهنة أو السحرة له شيطان يخبره ببعض الغيب فيخطئ ويصيب كما جاء في شأن الكهان والله أعلم.

رأي القرطبي:

قال الحافظ ابن حجر: وقال القرطبي: (كان ابن صياد على طريقة الكهنة يخبر بالخبر فيصح تارة ويفسد أخرى، فشاع ذلك ولم ينزل فيه وحي فأراد النبي صلى الله عليه وسلم سلوك طريقة يختبر حاله بها. وقد روى الإمام أحمد عن حديث جابر قال: " ولدت امرأة من اليهود غلاماً ممسوحة عينه، والأخرى طالعة ناتئة فأشفق النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون هو الدجال ".

وللترمذي عن أبي بكرة مرفوعاً قال: " يمكث أبو الدجال وأمه ثلاثين عاماً ثم يولد لهما غلاماً أعور أضر شيء، وأقله منفعة، تنام عيناه ولا ينام قلبه ".

ثم نعت لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه.

ولأحمد والبزار قال: " بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمه فقال سلها كم حملت به ؟ قالت: حملت به اثني عشر شهراً، فلما وقع صاح صياح الصبي ابن شهر ".) انتهى كلام القرطبي.

رأي البيهقي:

قال الحافظ ابن حجر وأجاب البيهقي عن قصة ابن صياد بعد أن ذكر ما أخرجه أبو داود من حديث بكرة قال صلى الله عليه وسلم: " يمكث أبو الدجال وأمه ثلاثون عاماً لا يولد لهما ثم يولد لهما غلاماً أعور. ".

وبذلك تكون الصفة التي في ابن صياد وافقت ما في الدجال وكأن الذين يجزمون أن ابن صياد هو الدجال لم يسمعوا قصة تميم الداري وإلا فالجمع بينهما بعيد جداً ؛ إذ كيف يلتئم أن يكون من في أثناء الحياة النبوية شبه المحتلم ويجتمع به النبي

صلى الله عليه وسلم ويسأله... أن يكون في آخرها شيخاً كبيراً مسجوناً في جزيرة من جزائر البحر موثقاً بالحديد يستفهم عن خبر النبي صلى الله عليه وسلم هل خرج أم لا ؟.

رأي الإمام النووي:

وقال الإمام النووي في باب ابن صياد: (وقصته مشكلة وأمره مشتبه في أنه الدجال المشهور أم غيره).

قال النووي: (وظاهر الأحاديث أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يوح إليه أنه المسيح أو غيره وإنما أوحي إليه بصفات الدجال، وكان في ابن صياد قرائن محتملة فلذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يقطع أنه الدجال أو غيره ولهذا قال لعمر رضي الله عنه: " إن يكن هو فلن تستطيع قتله ".

ثم قال رحمه الله تعالى: (أما احتجاجه هو – أي الدجال – بأنه مسلم والدجال كافر وأنه لا يولد له وقد ولد له هو، وأنه لا يدخل مكة والمدينة وأن ابن صياد دخل المدينة وهو يتوجه إلى مكة فلا دلالة له فيها. لأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أخبر عن صفاته وقت فتنته وخروجه من الأرض.

وأما إظهار الإسلام وحجه وجهاده وإقلاعه عما كان عليه فليس بصريح في أنه غير الدجال.).

رأي ابن حجر:

قال الحافظ: (وأقرب ما يجمع به بين ما تضمنه حديث تميم وكون ابن صياد هو الدجال، أن الدجال بعينه هو الذي شاهده تميم موثقاً).

ثم قال الحافظ ابن حجر: (وابن صياد شيطان تبدى في صورة الدجال في تلك المدة إلى أن توجه إلى أصبهان فاستتر مع قرينه إلى أن تجيء المدة التي قدر الله تعالى خروجه فيها.).

ثم ذكر الحافظ ابن حجر ما أخرجه أبو داود عن جابر وفيه أن جابراً شهد أنه ابن صياد. فقلت: إنه قد مات. قال: وإن مات، قلت: فإنه أسلم. قال: وإن أسلم، قلت: فإنه دخل المدينة. قال: وإن دخل المدينة.

قال ابن حجر:

(في كلام جابر إشارة إلى أن أمره ملتبس وأنه يجوز ما ظهر من أمره لا ينافي ما توقع منه في خروجه آخر الزمان.).

ثم قال ابن حجر: (وقد أخرج أحمد من حديث أبي ذر: لئن أحلف عشر مرات أن ابن صياد هو الدجال أحب ألي أن أحلف مرة واحدة أنه ليس هو. قال ابن حجر: وسنده صحيح.).

وفي كلام الحافظ ابن حجر دلالة واضحة على ميله للأخذ برأي عمر بن الخطاب.

رأي أبو نعيم الأصبهاني:

قال الحافظ ابن حجر: (أخرج أبو نعيم الأصبهاني في تاريخ أصبهان ما يؤيد كون ابن صياد هو الدجال. فساق من طريق شبيل عن حسان بن عبد الرحمن عن أبيه قال: لما افتتحنا أصبهان كان بين عسكرنا وبين اليهودية فرسخ يعني أربعة أميال فكنا نأتيها – أي القرية اليهودية – فنمتار منها – أي نشتري منها – ما نحتاج إليه فأتيتها يوماً فإذا اليهود يزفون ويشربون – يعني يرقصون – ويضربون بالدفوف. فسألت صديقاً لي منهم فقال لي: هذا ملكنا الذي نستفتح به على العرب يدخل. فبت عنده على سطح فصليت الغداة – أي الفجر – فلما طلعت الشمس، إذا الرهج من قبل العسكر فنظرت فإذا رجل عليه قبة من ريحان واليهود يزفون ويضربون فنظرت فإذا هو ابن صياد.

ومن مجموع الأحاديث الصحيحة المؤكدة لكون ابن صياد هو الدجال.

والأحاديث الصحيحة النافية لكون ابن صياد هو الدجال.

ومن مجموع أقوال الصحابة المؤكدة والنافية.

يلزم الجمع بمثل ما قال الإمام النووي:

(وظاهر الأحاديث أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يوح إليه بأنه المسيح ولا غيره وإنما أوحي إليه بصفات الدجال وكان في ابن صياد قرائن محتملة.).

وبذلك يكون القول الفصل في المسألة ما قاله ابن حجر:

(وأقرب ما يجمع به بين ما تضمنه حديث تميم وكون ابن صياد هو الدجال،

وأن الدجال (بعينه) هو الذي شاهده تميم موثقاً.

وابن صياد شيطان تبدى في (صورة) الدجال في تلك المدة إلى أن توجه إلى أصبهان.).

وبذلك يتحقق التفسير الصحيح في المسألة وهو أن ابن صياد ليس الدجال بعينه ولكن ابن صياد صورة كونية للدجال – باعتباره حقيقة غيبية –.

ثالثاً: عيسى ابن مريم

والأساس في هذه العلامة هو قول الله عز وجل: ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ ﴾

[الزخرف: 61]. وتفسير هذه الآية جاءت الأقوال فيه متعددة، ولكنها في الحقيقة تتجه نحو تصور منهجي محدد لعيسى ابن مريم كعلامة من علامات الساعة. وذلك كما جاء في ابن كثير.

وقيل أمارة ودليل على وقوع الساعة.

خروج عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام قبل يوم القيامة [126].

وقيل: آية للساعة.

وهكذا روي عن أبي هريرة وابن عباس وأبي العالية وأبي مالك وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم.

أما القول بأنه أمارة ودليل على وقوع الساعة، لأن معجزته هي إحياء الموتى بإذن الله وهذا الإحياء – دليل في حد ذاته – على القيامة.

والقول بأنه خروج عيسى قبل يوم القيامة، لأن بقاءه حياً حتى آخر الزمان دليل على الساعة، أما القول بأنه آية للساعة. فذلك لأن (آية) مرتبطة بعيسى ابن مريم في القران بكونه ولد من غير أب.

وهذه الولادة هي – في حد ذاتها – آية من آيات الخلق البشري، وقبل إثبات أن هذه الولادة آية للساعة سنستطرد في إثبات قانون القسمة الرباعية ؛ لأن هذا الخلق خاضع لقانون القسمة الرباعية وهو قانون عام للخلق ودلائل هذا القانون، في إطار الخلق البشري قول الله تعالى: ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ 49 أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ 50 ﴾

[الشورى 50:49]. وفي خلق أعمال البشر جاء قول الله عز وجل: ﴿ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴾ [ص: 45].

حيث جاء في تفسيرها أن الناس أربعة أنواع:

مَن عنده قدرة بغير بصيرة في العمل.

ومَن عنده بصيرة بغير قدرة على العمل.

ومَن يملك القدرة والبصيرة معاً.

ومَن لا يملك القدرة والبصيرة معاً.

---

1 – أخرجه ابن أبي حاتم في تفسير عن ابن عباس. وفتح القدير تحت رقم (11136).

وفي خلق أعمال البشر أيضا من حيث الإخلاص والمتابعة:

من الناس من يتابع بغير إخلاص.

من الناس من يخلص بغير اتباع.

من الناس من يخلص ويتابع.

من الناس من لا يخلص ولا يتابع.

وعن أبي كبشة عُمَر بن سعد الأنماري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله

صلى الله عليه وسلم يقول: " ثلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه: ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزاً، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر أو كلمة نحوها. وأحدثكم حديثاً فاحفظوا، قال: إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه أو يعلم لله فيه حقاً فهو بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء.

وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماًً فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتقى فيه ربه ولا يصل رحمه ولا يعلم لله فيه حقاً فهو بأخبث المنازل.

وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول: لو لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء " [127].

فإذا عدنا إلي عيسى ابن مريم نجد أنه قسم وحده في القسمة الرباعية. ذلك أن الخلق من حيث التوالد:

إما أن يكون من غير أب وأم مثل آدم.

وإما أن يكون من أب ومن غير أم مثل حواء.

وإما أن يكون من أب وأم وهم جميع الخلق.

وإما أن يكون من أم من غير أب وهو عيسى ابن مريم.

ومن هنا كان خلق البشر آية وكان عيسى وحده آية

أما علاقة هذا المعني بالساعة.. فإن الساعة لم تكن تقوم إلا بعد تمام الأقسام الأربعة أو بعد تمام الخلق البشري. ولما تحقق التمام بخلق عيسى. كان ذلك آية على الساعة. وهذه هي المرحلة الأولى في معني الآية: ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ ﴾.

وهي مرحلة عيسى في الحياة الدنيا.

أما المرحلة الثانية: فهي مرحلة عيسى في إطار العلامات وفي هذه المرحلة نجد أن عيسى ليس مجرد علامة من العلامات ولكنه علامة لكل علامات الساعة الكبرى.

فكونه يصلي خلف المهدي فهذه علامة على المهدي.

---

1 - أخرجه أحمد في ((مسنده)) (231/4). والترمذي في ((الزهد)) / باب: مثل الدنيا أربعة نفر (652/4/ح 2325). وابن ماجة في ((الزهد)) / باب: النية (1431/2/ح 4228). والبغوي في ((شرح السنة)) (289/4، 290 / ح 4097) من حديث أبي كبشة.

وكونه يقتل الدجال فهذه علامة على الدجال.

وكونه يأوي بعباد الله من يأجوج ومأجوج إلى جبل الطور فهو علامة على يأجوج ومأجوج.

ولذلك ارتبطت علامة عيسى بآخر زمن العلامات وهو قتل يأجوج ومأجوج، بل وقذف أجسادهم في البحر، ففي الحديث بعد أن ذكر النبي صلى الله عليه وسلم قتل الدجال ثم قتل يأجوج ومأجوج، وقذف أجسادهم في البحر قال:

" ففيما عهد إلى ربي عز وجل: أن ذلك إذا كان كذلك نهراً فإن الساعة كالحامل المتم التي لا يدري أهلها متي تفاجئوهم بولادها ليلاً أو نهاراً " [128].

واستمراراً في تحليل علامة عيسى ابن مريم في إطار العلامات، نجد أن إيمان أهل الكتاب به قبل موته كما قال الله سبحانه: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: 159].

ونجد كذلك أن عيسى بنفسه سيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية.

فبذلك يصير الدين ملة واحدة، وهو الوضع البشري الذي ستقوم عليه الساعة. ليصبح هذا الواقع كما كان في بداية الخلق، حيث كان الخلق أمة واحدة كما قال الله: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [البقرة: 213]. ويعود أمة واحدة بفعل عيسى بإذن ربه.

أما المرحلة الثالثة فهي: يوم القيامة ذاته. حيث سيقف عيسى شاهداً على وحدانية الله أمام جميع الخلائق:(وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ117 إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: 117 , 118].

وبعد تحليل موقف عيسى. نجد أن عيسى علامة للساعة في الدنيا وفي علامات الساعة والساعة بصورة جوهرية جعلته في إطار العلامات علامة على كل العلامات الكبرى، ولما كان مجموع العلامات هو الذي يفيد العلم. انطبق على عيسى هذا اللفظ القرآني: ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ ﴾ [الزخرف: 61]. والحقيقة أن للعلاقة بين عيسى والساعة أصلاً قرآنيا من خلال معنى الإرادة والمشيئة والقدرة الإلهية المطلقة، حيث لم يُذكر في القران تعبير: (كن فيكن) إلا في ثمانية مواضع أربعة متعلقة بعيسى ابن مريم، وأربعة متعلقة بقيام الساعة، والأربعة الأولي جاءت في سورة البقرة آية 117، آل عمران: 47، 59، مريم: 35، والأربعة الأخرى جاءت في سورة الأنعام آية: 73، والنحل: 40، يس: 82،

غافر: 68. والحقيقة أن حكمة الزمان والمكان في نزول عيسى أمر كان في غاية الروعة، فمن حيث الزمان كان صلاة الصبح، وصلاة الصبح هي أقوي موانع الفتن ؛ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث نزول الفتن عن أم سلمة قالت: استيقظ النبي صلى الله عليه وسلم ذات

---

1 - تقدم تخريجه.

ليلة فقال: " سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن ؟ وماذا فتح من الخزائن ؟ أيقظوا صواحبات الحجر فربَّ كاسية في الدنيا عارية في الآخرة " [129].

وقال صلى الله عليه وسلم: " إني لأري الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر))[130].وذلك لأن صلاة الليل حرز من الفتن، صلاة الصبح تعدل قيام الليل كما قال عليه الصلاة والسلام: " من صلى العشاء في جماعة كأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة كأنما قام الليل كله " [131].

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فان صلاة الصبح تجعل صاحبها في ذمة الله، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: " من صلى الصبح في جماعة كان في ذمة الله حتى يمسي... " [132].

ومن ناحية ثالثة... فإن التقابل بين صلاة الصبح والدجال، أن صلاة الصبح خير من الدنيا وما فيها، وأن فتنة الدجال هي شر الدنيا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: " يتبعه اليهود والمال والنساء والشياطين " [133].

وقد يكون ملاحظاً أن الكلام عن المسيح عيسى ابن مريم كان أقل في العلامات، والحقيقة غير ذلك ؛ لأن علامة المسيح ابن مريم متداخلة مع أكبر العلامات ومجموعها مثل المهدي، والدجال ويأجوج ومأجوج، فيكون الكلام عن علامة المسيح عيسى ابن مريم – حقيقة – قد نال أكبر حيز من التصور المنهجي للعلامات.

رابعاً: يأجوج ومأجوج

كان يأجوج ومأجوج فوق الأرض فأفسدوا فيها، فأخفاهم الله عز وجل وراء الردم الذي بناه ذو القرنين.

وبذلك فرق الله بين البشر المختلفين المفسدين وغير المفسدين، حتى إذا فسد أهل الأرض وأصبحوا مثل يأجوج ومأجوج وعندئذ فإن حكمة التفريق بين البشر المفسدين وبين يأجوج ومأجوج تنتفي، فلا يكون هناك حكمة في التفريق بينهما فيخرج يأجوج ومأجوج إليهم وبذلك يدخل يأجوج ومأجوج تحت الردم

بسُنَّة الله الثابتة ويخرجون إلى الناس من تحت الردم بسنة الله الثابتة أيضاً ؛ لأن

سنة الله الثابتة هي:

التفريق بين المختلفين... والجمع بين المتماثلين..

---

1 - تقدم تخريجه.

2- - أخرجه البخاري ((فضائل المدينة)) / باب: أحكام المدينة (1878/113/4).

3- أخرجه مسلم في ((المساجد ومواضع الصلاة)) / باب: فضل العشاء والصبح (157/5/2. النووي). وأبو داود في ((الصلاة)) / باب: فضل صلاة الجماعة (149/1/ح 555).

4- أخرجه مسلم في ((المساجد ومواضع الصلاة)) / باب: الرخصة في التخلف عن الجماعة (158/5/2. النووي). وأحمد في ((مسنده)) (312/4).

5 - أخرجه أحمد (216/4). والطبراني في ((الكبير)) (51/9/ح 8392). وذكره الهيثمي في ((المجمع)) (342/7) بلفظ: " فأكثر تبعه من اليهود والنساء ". قال: فيه علي بن زيد وفيه ضعف وقد وثق، بقية رجاله رجال الصحيح.

وهذا نص تعريف ابن تيمية لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الثابتة الذي أورده في كتاب النبوات.

وفي هذه السنة الثابتة جاء قول الله عز وجل عن يأجوج ومأجوج:(فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا **97** قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا **98** وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ [الكهف: **97 – 99**].

ولذلك جاء في تفسير الآية الأخيرة قول السدي: ذاك حين يخرجون على الناس، وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال. وقال ابن كثير: كما سيأتي بيانه عند قوله عز وجل: ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ [الأنبياء: **96**].

حتى أن هناك قولاً آخر يؤكد معنى السنة الثابتة: (التفريق بين المختلفين والجمع بين المتشابهين) وهو إذا ماج الجن والإنس في آخر الزمان يختلط الجن والإنس ؛ لأن ظهور الجن والإنس والاختلاط بينهما سيحدث عندما يكون الإنس مثل الجن وأعمالهم فيظهرون لهم، تماماً مثلما يظهر يأجوج ومأجوج في آخر الزمان.

وقد جمع [134] الله في يأجوج ومأجوج كل صفات الفتن التي ستمر بها الأمة بحيث تتحقق في فتنة يأجوج ومأجوج الطبيعة الكاملة للفتنة، ابتداءً من البداية اليسيرة للفتنة، وهي فتنة الرجل في أهله وماله وانتهاء بالفتنة التي تموج كموج البحر، بحيث تمثل هذه البداية وتطورها مرحلية أساسية في تطور الفتن. وقد جمع حديث عمر هذين النوعين فقال: " أيكم يحفظ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الفتن ؟ ".

حدثنا الأعمش حدثنا شفيق سمعت حذيفة يقول: " بينما نحن جلوس عند عمر إذ قال أيكم يحفظ قول النبي صلى الله عليه وسلم في الفتنة ؟ قال: فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره يكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ". قال: ليس عن هذا أسألك، ولكن التي تموج كموج

البحر، فقال: ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها باباً مغلقاً. قال عمر: أيكسر الباب أم يفتح ؟ قال: لا بل يُكسر. قال عمر: إذن لا يُغلق أبداً. قلت: أجل. قلنا لحذيفة: أكان عمر يعلم الباب ؟ قال: نعم، كما يعلم أن دون غد ليلة، وذلك أني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط، فهبنا أن نسأله مَن الباب فأمرنا مسروقاً فسأله. من الباب ؟ قال: عمر " [135].

وقد حدد هذا الحديث المرحلة الأساسية لتطور الفتن. وقد وصف النبي

صلى الله عليه وسلم هذا التطور من خلال رد الفعل الإنساني تجاهها فقال: ستكون فتن يرقق بعضها بعضاً.

ثم يأتي حديث الأحلاس ليقر حقيقة تطور الفتن وعلاقة ذلك بيأجوج ومأجوج والأحلاس هي الظلمات، ثم فتنة السراء دخلها أو دخنها من تحت قدمي رجل من أهل بيتي يزعم أنه مني وليس مني إنما أوليائي المتقون. ثم فتنة الدهيماء لا تدع أحداً من هذه الأمة إلا لطمته، وهي الفتنة التي تعود

---

1 – نذكر بالتعريف الأساسي للعلامات بأنها أفعال الله الجامعة.

1 – أخرجه البخاري في ((الفتن)) / باب: الفتنة التي تموج كموج البحر (7096/52/12).

حتى إذا قيل انقضت عادت ويصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، حتى يصير الناس فسطاطين، فسطاط إيمان لا نفاق فيه وفسطاط نفاق لا إيمان فيه فإذا كان ذلك فانتظروا الدجال من يوم أو من غداة [136]

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " فانتظروا الدجال من يوم أو من غداة " يدل على أن الفتن بطبيعة تطورها ستبلغ فتنة يأجوج ومأجوج ولتتضمن فتنة يأجوج ومأجوج كل فتنة ستظهر. وبجانب طبيعة التطور في الفتن تأتي طبيعة العموم. وهي السنة الثابتة بقول الله عز وجل: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةٍ لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةٍ ﴾ [الأنفال: 25].

ويفسر النبي صلى الله عليه وسلم صفة العموم أو التعميم بتشبيه وقع الفتن في الواقع مثل مواقع القطر. حتى تنزل نقطة الماء من السماء إلى الأرض ثم تمتد في الأرض لتشمل جميع الأرض.

ويفسر طبيعة العموم في يأجوج ومأجوج الكيفية التي سيظهرون بها على الأرض حيث سيبدأ ظهورهم من أماكن محددة (من كل حدب ينسلون) ثم يعمون الأرض ويملؤنها حتى يقول قائلهم: نحن قد قتلنا أهل الأرض ونقاتل أهل السماء.

ومن طبيعة الامتداد كبداية وتطور تكون الصفات الذاتية للفتنة. وأهمها الصفات المجتمعة مع يأجوج ومأجوج ومنها:

- الظلمة: حيث إن الفتنة بطبيعتها ظلمة / لاصقة، ولهذا جاءت فتنة اسمها الأحلاس، ويؤكد صلى الله عليه وسلم صفة الظلمة في الفتن، وفيها يقول:
- " ويل للعرب من شر قد اقترب. فتن كقطع الليل المظلم ؛ يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، يبيع دينه بعَرَض من الدنيا قليل، المتمسك يومئذ بدينه كالقابض على الجمر أو قال على الشوك " [137]
- ومنها فتن القتل والدماء: وفيها يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " يتقارب الزمان، وينقص العمل، ويلقي الشح، وتظهر الفتن ويكثر
- الهرج. قالوا: يا رسول الله أيهما أشد ؟ قال: القتل القتل " [138].
- والقتل والدماء من الصفات التي لا يخفى على أحد تحققها في يأجوج ومأجوج والأدلة على ذلك كثيرة... ولعل أخطرها بلوغهم مرحلة قتال أهل الأرض واتجاههم إلى قتال أهل السماء.

---

2 – أخرجه أبو داود في الفتن باب: ذكر الفتن ودلائلها (4242/92/4). عن عبد الله بن عمر كنا قعوداً عند رسول الله فذكر الفتن... الحديث. وفيه قال قائل: يا رسول الله ما فتنة الأحلاس ؟ قال: " هي هرب وحرب ".

1– أخرجه مسلم في ((الإيمان)) / باب: الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن (410/1/ ح 118). أحمد في ((مسنده)) (390/304/2) والترمذي في ((الفتن)) / باب: ما جاء ستكون فتن كقطع الليل المظلم (487/4/ح 2195) من حديث أبي هريرة، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، قال أحمد شاكر في تعليقه على المسند (15 / 179 / 8017) إسناده صحيح.

1– أخرجه البخاري في ((الأدب)) / باب: حسن الخلق (471/10/ح 6037). والفتن (7061/16/13)، وأحمد في ((مسنده)) (233/2) وأبو داود (4255/96/4) جميعاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

- ومنها اللسان: وفيها يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " إنه ستكون فتنة وستصيب العرب، قتلاها في النار، وقع اللسان فيها أشد من وقع السيف" [139].

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ستكون فتنة صماء بكماء عمياء من أشرف لها استشرفت له، اللسان فيها كوقع السيف " [140].

وتشترك هذه الفتنة مع يأجوج ومأجوج في اثر اللسان، حيث إن خروج يأجوج ومأجوج سيكون بلحس [141] السور بألسنتهم، ويكون اللسان في هذه الفتنة كوقع السيف.

وقد شاء الله عز وجل ألا يتوقف التماثل بين يأجوج ومأجوج والكفار من البشر في الإفساد ودرجته فقط، وألا يتوقف التماثل بينهما في طبيعة الفتنة وعناصرها المذكورة فقط بل قد بلغ الأمر تماثلاً عددياً دقيقاً بين الكفار من البشر منذ آدم حتى قيام الساعة وبين يأجوج ومأجوج.

وتفسير ذلك:

هو أن النسبة العددية بين يأجوج ومأجوج وأهل الجنة واحد من الألف.

هو أيضاً النسبة العددية بين كفار الأمم جميعها وأهل الجنة واحد من الألف.

فيصبح عدد يأجوج ومأجوج هم عدد كفار الأمم من البشر منذ خلق الله آدم حتى قيام الساعة.

والدليل على النسبة الأولي:

هو قول النبي صلى الله عليه وسلم.

والدليل على النسبة الثانية: هو قول النبي صلى الله عليه وسلم والدليل على هذا التفسير أنه في نص الحديث الأول هو قال النبي صلى الله عليه وسلم: " وما أنتم في الأمم – يقصد جميع الأمم الكافرة – وهم بعث النار يكون معنى ما أنتم ؟ هو جميع المؤمنين من الأمم وهم بعث الجنة ".

ويكون الخطاب بقوله: (ما أنتم) باعتبار وحدة الاسم المؤمنة الممثلة في أمة النبي صلى الله عليه وسلم كامتداد وحيد لهذا الاسم.

كما لا يجوز القول بأن كلمة: (الاسم) مقصود بها يأجوج ومأجوج، لأن بعث النار هم الأمم الكافرة من البشر، ويأجوج ومأجوج.

ولكن وحدة النسبة تفيد أن عدد يأجوج ومأجوج هو عدد تغير البشر بنسبتهم الواحدة الثابتة مع أهل الجنة واحد من كل ألف.

وباعتبار أن يأجوج ومأجوج حقيقة غيبية فقد جعل الله لها مثلاً كونياً وهم التتار أو الترك الذين سموا بذلك بسبب تركهم خارج السور. وعلى أساس هذا المعنى عقد علماء الأمة مقارنة بين التتار ويأجوج ومأجوج حيث تأكد المعنى وثبت بدلائله الكثيرة.

وكان من هؤلاء العلماء ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ، وابن كثير في البداية والنهاية.

---

2 – أخرجه أبو داود في ((الفتن)) / باب: كف اللسان (4/99/ح 4265).

3 – أخرجه أبو داود في ((الفتن)) / باب: كف اللسان (4/99/ح 4265).

4 – هذا ما رواه أبو هريرة، غير مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم (ابن كثير).

ومن ذكر ابن الأثير وإتمام ابن كثير للمقارنة بين التتار وياجوج ومأجوج نواصل تفصيل هذه المقارنة.

وأول ما يفاجئنا من عناصر هذه المقارنة هو الاسم الحقيقي لجنكيز خان وهو

(بتموجين) وهو اسم مشتق من يأجوج ومأجوج.

أما بقية العناصر فأولها:

الموقف من الماء والسماء والأماكن المرتفعة والأسوار والطعام والقتل.

- فيأجوج ومأجوج يشربون الماء، أما التتار فكانوا يطلقون أي ماء يقابلهم حتى يذهب.
- ويأجوج ومأجوج لا يقف أمامهم شيء حتى أنهم اتجهوا إلى السماء. وكذلك التتار إذا أرادوا شيئاً قالوا أدركوه ولو تعلق بالسماء.
- ويأجوج و مأجوج يحاولون الآن الظهور فوق السور الذي بناه ذو القرنين والارتفاع فوقه، وعند ظهورهم فأنهم يخرجون من كل حدب. وهو المكان المرتفع من الأرض. والتتار كذلك فقد روي عن جنكيز خان أنه يصعد إلى أعلى مكان مرتفع في الجبل ثم يهبط حتى يصيبه إعياء فيقول حينئذ اكتبوا ما أقوله حتى كتب (الياسق) بهذا الشكل،حتى أنه لما مات وضعوه في تابوت من حديد وربطوه بسلاسل من الحديد إلى أعلى جبلين، فهو معلق في الهواء. والتتار – عموماً – يتعبدون في أعالي الجبال للشمس.
- يأجوج و مأجوج تمنعهم الأسوار فهي حرز منهم مثل سور ذي القرنين، ولهذا يذكر ابن كثير أن قوماً احترزوا منهم (أي من التتار) بسور في غاية الارتفاع والإتقان وأخذوا يقرءون القرآن ويشتغلون بعلم الحديث فحفظهم الله بهذا الشأن وانصرفوا عنهم. (البداية و النهاية لابن كثير).
- ولعل هذا يذكّر بما أورده ابن كثير عن التتار في رغبتهم الجامحة في هدم سور بيت المقدس ومعاونة النصارى لهم في ذلك، وكان هذا السور حائلاً بينهم وبين الدخول لما بعده من أرض الشام، لأنهم لم يفعلوا ذلك ولم ينجحوا فيه إلا بعد هدم السور فعلاً. (البداية و النهاية لابن كثير).

ويأجوج و مأجوج يأكلون أي شيء.. بحيث ورد عنهم أنهم يأكلون جميع الحشرات من الأرض و الحيات و العقارب، وكل ذي روح مما خلق الله في الأرض.. يتسافدون تسافد البهائم.. (جاء في التذكرة و قال صح أصله في كتاب: (القصد و الأمم في أنساب العرب). وكذلك التتار روى فيهم ابن كثير. ولم يتفق لأحد من أهل البلاد التي لم يطرقوها بقاء إلا وهو خائف مترقب وصولهم، وهم مع ذلك يسجدون للشمس ولا يحرّمون شيئاً، ويأكلون ما وجدوه من هذه الحيوانات و الميتات لعنهم الله تعالى.

ولعلنا نلاحظ أنهم يأكلون كل شيء فيه سموم وفتنة وشر ليتحقق فيهم الارتباط بين المخلوق وما يأكله.. من حيث الطبع [142]

ويتمم ابن كثير مقارنة ابن الأثير بقوله: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اتركوا الأتراك ما تركوكم " [143] و الحديث يدل على خروجهم و قتالهم المسلمين وقتلهم.

1- التذكرة للقرطبي، ص 782.

وقد وقع ذلك على نحو ما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم و خرج منهم في هذا الوقت أنهم لا يحميهم (يدفعهم) إلا الله، ولا يردهم عن المسلمين إلا الله حتى كأنهم يأجوج و مأجوج أو مقدمتهم).

- أما توافق يأجوج و مأجوج مع التتار في الرغبة في القتل و حب الدماء فهو من أظهر الأمور وهذه المقارنة لا يثبتها فقط مجرد أن يأجوج و مأجوج و التتار من أصل واحد بل يثبتها أن التتار حركة مماثلة تماماً ليأجوج و مأجوج. وأن التتار مثل كوني ظاهر ليأجوج ومأجوج كحقيقة غيبية.

ثم يأذن الله سبحانه و تعالى بإهلاك يأجوج و مأجوج. وذلك بعد أن يقتل يأجوج و مأجوج من البشر ما يستحقون في علم الله. لحديث النواس بن سمعان

وفيه: " يحصر نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم فيرغب نبي الله عيسى عليه السلام و أصحابه فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة " [144].

والنغف: دود يكون في أنوف الإبل و الغنم، الواحدة منها نغفة و هو أيضاً الدود الأبيض الذي يكون في النوى، و ما سوى ذلك من الدود فليس بنغف، والعرب تقول لكل ذليل حقير: ما هو إلا نغفة، لأن النغفة المستحقر.

- إن هلاك يأجوج و مأجوج بقدر الله عز وجل. دون أسباب بشرية تعنى حقيقة منهجية مهمة، وهى أن الفتنة لا يمنعها إلا الله، أو يقضى عليها إذا ظهرت أحد غيره سبحانه، و الدور البشري محدود باللجوء إلى الله عز وجل منها. ومحدودية الدور البشري في مواجهة الفتنة ترجع إلى حقيقة و طبيعة الفتنة

- ذاتها، فالفتننة حالة استثنائية يضيع فيها مفهوم الحق و يتبدد صوابه، فلا يرى الإنسان فيها الصواب: " حتى تدع الحليم حيران ".

و قد أخذت الفتنة هذه الطبيعة لأنها من بدايتها تغليب للعقل على النص وهو ذنب عقوبته الفتنة فتصبح الفتنة بعد الاصطدام بينهما (العقل و النص)

ضياع العقل وضلال عن النص. ولأن الفتنة من بدايتها تصرف ذاتي غير منضبط شرعاً، فتكون الفتنة هي الحالة التي لا ينفع معها التصرف، لتصبح تخبطاً وأفعالاً غير مقصودة.

والفتنة خروج بالواقع عن حكم الشرع. فتكون العقوبة أن تظل الفتنة وقعاً غير محكوم.

وتكون الفتنة بؤرة دائرة بمن فيها لا يملك فيها الإنسان اتخاذ موقف ثابت فتكون الحركة قسرية و تصبح كل حركة ضارة.

ولهذا كان النائم فيها خيراً من الجالس، و الجالس خيراً من الواقف، والواقف خيراً من الماشي [145]

فيكون الصواب هو الثبات و عدم الحركة.

2- أخرجه أحمد في ((مسنده)) (371/5). وأبو داود في ((الملاحم / باب: في النهى عن تهيج الترك و الحبشة (109/4، 110/ ح 4202). من طريق أبي سكينة رجل من المحررين عن رجل من أصحاب النبي.

1- تقدم

1- أخرجه أبو داود في الفتن باب: النهى عن السعي في الفتنة (4/ 96 / 4256)، عن أبي بكرة معروفاً وفى أوله: " أنها ستكون فتنة يكون المضطجع فيها خيراً من الجالس.. الحديث ".

ولأجل أن اللسان هو أخطر أداة للتصرف غير المحكوم.. كان للسان وقع السيف في الفتنة، لأن الكلمة التي لا يملكها صاحبها، يكون مسئولاً عنها، و هو غير قادر عليها، و لذلك كان مثلها مثل ثور هائج خرج من جحر صغير لا يستطيع أن يرجع إليه. ولا يستطيع أحد التحكم فيه [146]

و لكن الفتنة بطبيعتها لا تتجاوز حدودها.

تقف عند الشرع..

تقف عند الطاعة..

تقف عند الحق..

و لذلك وقفت فتنة يأجوج ومأجوج عند جبل الطور.. الذي تم فوقه كلام الإنسان مع الله.. و تلقى عليه موسى الألواح المكتوبة بيد الله سبحانه.

﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [البقرة: 51].

﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمْ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [البقرة: 51].

﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: 52].

وفي كلمة (من بعده) أي أن فتنة العجل كانت بعد وقوف موسى أمام ربه سبحانه فوق الجبل و تلقيه الألواح..

ومعنى (من بعده) أي: ما كان لهذه الفتنة أن تقع بعد ما حدث فوق جبل الطور. والموقف الجامع لتفسير معنى الفتنة بكل أبعادها، هو ذلك الجزاء الذي جعله الله على بني إسرائيل بعد اتخاذهم العجل..

أن يقتل بعضهم بعضاً، لأنهم تخلو عن الحب في الله، بعد أن أُشربوا العجل بكفرهم في ظلمة، لأنهم كانوا في ظلمة العجل و فتنته.

لا يدري مَن يقتل مَن.. لأنهم خرجوا عن نظام ربهم وحدوده..

ولا يملك موسى إلا السجود لله.. حتى يعفوا عنهم..

ويبقى القتل حتى يقتل سبعون ألفاً في ليلة.. وبعد ذلك يعفو الله , الذي يرجع إليه الأمر كله.

ولعل الطور كان ملجأ عيسى و من معه من أجل هذا المعنى.

ولكن هلاك يأجوج ومأجوج لا يكون إلا بعد ما يرغب عيسى إلى ربه , وذلك ما يثبت القاعدة بين الرغبة إلى الله و بين طلب الامتداد و الحياة.

ومثل ذلك تحقيق الاستجابة لدعاء زكريا بالولد في قوله سبحانه:

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: 91].

2- تراجع أحاديث الإسراء و المعراج و فيها ثم أتى على قوم تُقرض ألسنتهم و شفاهم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شيء فقال ما هذا يا جبريل ؟قال:هؤلاء خطباء الفتنة ثم أتى على= =جحر صغير يخرج منه ثور عظيم فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع فقال ما هذا يا جبريل ؟ فقال: هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع ردها.

وفى توجيه الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة و السلام للدنيا بعد العبادة جاءت سورة الشرح: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ [الشرح: 7].

إذا فرغت من عبادتك فاتجه إلى حياتك , والى ربك فارغب.

و عن خباب بن الأرت و كان شهد بدراً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه راقب رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة كلها حتى كان الفجر , فلما سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاته جاء خباب فقال يا رسول الله: بأبي أنت و أمي لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت نحوها , فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم: " أجل إنها صلاة رغب و رهب , سألت الله فيها لأمتي ثلاث خصال فأعطاني أثنين و منعني واحدة , سألت ربي ألا يهلكنا بما أهلك به الأمم فأعطانيها , و سألت ربي عز وجل ألا يظهر عليها عدواً من غيرنا

فأعطانيها , وسالت ربي عز وجل يُلْبِسَنَا شيعاً فمنعنيها " [147].

و بذلك يرتبط معنى الرغب بطلب الامتداد والبقاء. وهو مضمون النجاة من فتنة يأجوج ومأجوج بقتلها و دمارها.

إخراج الأرض بركاتها:

وهي العلامة التي ستكون بعد قتل يأجوج ومأجوج وفيها إثبات: لعلاقة التقابل بين البركة والفتنة.

ودليل ذلك حديث الجرة التي أهدتها صحابية لرسول الله صلى الله عليه وسلم , وفيه: " أنها أسلت سمناً له في عكة ثم أهدته للنبي صلى الله عليه وسلم فقبِله وأخذ ما فيها , ودعا لها بالبركة وردها إليها فرأته ممتلئاً سمناً , فظنت أنه لم يقبلها, فجاءت ولها صراخ فقال صلى الله عليه وسلم: أخبروها بالقصة , فأكلت منه بقية عمر النبي صلى الله عليه وسلم وولاية أبي بكر الصديق رضي الله عنه , وولاية عمر رضي الله عنه وولاية عثمان رضي الله عنه حتى كان بين علي ومعاوية ما كان ".

وكذلك ارتباط البركة بامتناع المعاصي و الفساد في الأرض ذلك لأن البركة تمتنع بالفساد بدليل قوله تعالى:(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: 96]، وعندما يموت يأجوج ومأجوج والكافرون معهم، حيث لن يبقى إلا المؤمنون المعتصمون بحبل الطور فإن الفساد يكون قد امتنع في باطن الأرض وظاهرها.

فتخرج الأرض بركاتها، وذلك من حديث النواس بن سمعان و فيه: " ثم يقال للأرض أنبتي ثمرك ورُدي بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة و يستظلون بقحفها يبارك في الرسل حتى أن اللقحة من الإبل لتكفى الفئام من الناس و اللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس , و اللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس " [148].

خامسا: الدابة

1- ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره في تفسير قوله تعالى: ﴿ و يذيق بعضكم بأس بعض ﴾ , (ح 7415).

1- تقدم.

وإذا أردنا فهم الحكمة من خرج الدابة لا بد لنا من فهم العلاقة بين الأرض وعمل الإنسان.

من حيث الخلق.

من حيث الأثر.

من حيث الختم و الشهادة.

أما من حيث الخلق: فقد حدد الله سبحانه هذه العلاقة بقوله عز وجل:

﴿ هُوَ أَعْلَمُ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾

[النجم:32].

فالإنسان مرتبط في عمله بمادة خلقه.

أما من حيث الأثر: فإن لطبيعة الأرض وعمل الإنسان علاقة ثابتة مباشرة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله خلق آدم من جميع الأرض فمنه السهل والحَزَن الأبيض والأسود " [149].

وأما من حيث الختم و الشهادة: ففيها الحديث الذي رواه أبو هريرة حيث قال قرأ رسل الله هذه الآية: ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ قال أتدرن ما أخبارها ؟ قالوا: الله رسوله أعلم قال: فإن من أخبارها أن تشهد [150] على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول عمل كذا يوم كذا و كذا , فهذه أخبارها. لذا لزم أن تتابع الأرض عمل الإنسان حيث تشهد عليه.

فلزم كذلك أن تختم على الإنسان عمله , لأنه موضوع شهادتها.

ولكن الأرض لا تستطيع ختم العمل وهي في صورتها التي هي عليها.

فحينئذ يبدأ ظهور الدابة كصورة جديدة للأرض , لتتمم الختم.

ولتكون علامة الدابة المتولدة من الأرض لتحكم عليهم و تختم على أعمالهم.

وكما كانت الأرض ذلولاً للإنسان. أصبح الإنسان ذللاً للأرض في صورة هذه العلامة الخارجة منها.

والحقيقة أن علاقة الإنسان بالأرض جعلت الأرض تتأثر بعمل الإنسان وبصورة تستوجب أثراً للأرض في الإنسان يقابل أثر الإنسان فيها.

ومن أمثلة هذا التأثر الزلازل التي تكون بسبب الزنا كما قال صلى الله عليه وسلم: " يرفع العلم و يفشو الجهل و يشرب الخمر و يكثر الزنا و الزلازل ".

والدقة في الأعمال الواردة تكشف أنها اضطراب في وجود الإنسان رفع العلم الذي تغيب به الأحكام الضابطة لحركة الإنسان فيكون الاضطراب. وكذلك شرب الخمر الذي يغيب به إحكام العقل وتوازن التصرفات الإنسانية ليكون اضطراب السلوك.

والزنا الذي يغيب نظام النسب و العلاقات ليكون اضطراب الأنساب.

1- أخرجه أبو الشيخ في العظمة (ح 1023) وله شاهد من رواية ابن منبه أيضاً في ((العصمة)) (ح1022). هو ضعيف لأن ابن منبه يحدث عن بني إسرائيل.

1- أخرجه أحمد في مسنده (374/2). الترمذي في تفسير القرآن / باب: من سرة (إذا زلزلت الأرض) (3353/446/5) النسائي في تفسيره (713/544/2). و الحاكم في المستدرك (532/2). البيهقي في الشعب (7298/446/5) انظر ((فتح التقدير)) (ح13986).

و لما كانت الزلازل عقوبة على هذه الأعمال.

ثبت أن الجزاء من جنس العمل.

حيث يسبب اضطراب الوجود الإنساني و عقله ونَسَبه اضطراباً في الأرض التي تحمله , لتكون الزلازل. و بذلك تفسر علامة الدابة قاعدة القصاص الكوني الذي

سيكون بين الخلائق. ومثاله.. القصاص الذي سيكون بين الشاة الجلحاء والشاة القرناء. من حديث أبي هريرة: " لتؤدُّنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء "[151] وهذا القصاص المسمى بالقصاص الكوني يختلف عن القصاص التكليفي الذي سيكون بين الأطراف المكلفة.

وهذا المثل المضروب بين الشاتين هو الذي يجعلنا نفهم حقيقة القصاص بين الإنسان و الأرض و الذي يقتضي أن يكون الإنسان مذللاً للأرض كما كانت الأرض مذللة له.

وبفرض صحة وجوب إذلال الإنسان للأرض , فلماذا ينطبق هذا الوجوب على الناس المعاصرين لخروج الدابة فقط و ليس كل البشر ؟

والإجابة على التساؤل أولاً: أن الناس الذين يعاصرون الدابة و تقوم عليهم الساعة هم أشر البشر قدرة على الأرض في ظنهم و دليل ذلك قول الله عز و جل:

﴿ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ﴾

[يونس: 24].

لتكون الأرض بعد تولد الدابة منها قادرة على البشر كما ظنوا أنهم قادرون عليها. واستمراراً في إتمام الإجابة على السؤال السابق أن نذكر أن العلاقة بين الإنسان و الأرض ليست منحصرة بصورة كلية في الدابة في آخر الزمان.

فهناك علاقة لا يستثنى منها بشر , وهي: (ضمة القبر) , وهذا فعل الأرض التي تستقبل جزءاً ناقصاً منها , عاد إليها.

فعلى الرغم من أنه لن يستثنى منها أحد إلا أن الضمة ستكون متناسبة مع

العمل , حتى أنها قد تجعل ضلوع العبد تختلف و تتداخل في جسده. كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم[152]

فالعلاقة بين الإنسان والأرض علاقة دائمة عامة و ليست فقط علاقة بين الدابة ومَن ستخرج عليهم من البشر و ليس أدل على الارتباط العام بين عمل الإنسان الدابة من أماكن خروجها وتعدده , حيث يكون لها ثلاث خرجات:

خرجة من وادي الحِجْر مكان قوم ثمود.

خرجة من سَدُوم مكان قوم لوط.

1- تقدم تخريجه.

1- أخرجه الترمذي في الجنائز / باب: ما جاء في عذاب القبر (3/374/ ح 1071) و لفظه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قبر الميت أو قال أحدكم أتاه ملكان وفيه وإن كان منافقاً قال: سمعت الناس يقولون فقلت مثله لا أدري فيقولون: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك فيقال للأرض: التئمي عليه فتلتئم عليه , فتختلف فيها أضلاعه فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك.

خرجة من بين الصفا و المروة و هي مكة (البلدة التي حرمها الله) [153].

ولهذه الأماكن دلالتها في تفسير العلامة...

قوم ثمود وقوم لوط، أشد البشر كفراً، وكان كفرهم أعمق الأثر في الأرض. حتى أن هذين القومين هما اللذان جعل الله منهما علاقة باقية للاعتبار. حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بإهراق العجين الذي عجن من ماء وادي الحجر عندما مر عليه المسلمون في غزوة تبوك.

وأمر أن يسرع المسلمون المشي في هذا المكان [154].

وكذلك قوم لوط الذين جعل الله منهم بقية منتنة من ماء تذَّكر بنتنهم وكأن القومين تركا في الأرض جرحاً غائراً لم يلتئم. استوجب أن تخرج منهما الدابة. شهادة على عمق الكفر والفساد في الأرض.

ومن هنا كانت مواقع عذاب ثمود ولوط آيات من رب العالمين.

- الحجر... مكان قوم صالح.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً ﴾ [النمل: 45].

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: 52].

- سدوم مكان قوم لوط... ﴿71 لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ 72 فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ 73 فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحج:74:71].

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر: 77].

- وفي عذاب قوم لوط أيضا..

﴿ 30 وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ 31 قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ 32﴾ [العنكبوت].

﴿ وَلَقَد تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: 35].

---

2 – أخرجه الحاكم في ((مستدركه)) (484/4). ولفظه عن لبي سريحة الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " يكون للدابة ثلاث خرجات من المهد تخرج أول خرجة بأقصى اليمن فيفشوا ذكرها بالبادية، ولا يدخل ذكرها القرية – يعني مكة – ثم بينما الناس يوماً في أعظم المساجد حرمة وأحبها إلى الله وأكرمها على الله تعالى المسجد الحرام – لم يرعهم إلا وهي ناحية المسجد تدنو بين الركن وبين باب بني مخزوم عن يمين الخارج في وسط ذلك فيرفض الناس عنها شتي ومعاً ويثبت لها عصابة من المسلمين عرفوا أنهم لن يعجزوا الله فخرجت عليهم تنفض عليهم رأسها التراب فبدت بهم فجلت عن وجوههم حتى تتركها كأنها الكواكب الدرية ثم ولت في الأرض لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب، حتى أن يدخل ليتعوذ منها بالصلاة فتأتية من خلفه فتقول: أين فلان ؟ الآن تصلى فيلتفت إليها فتسميه في وجهه ثم تذهب فيتجاوز الناس في ديارهم ويصطحبون في أسفارهم ويشتركون في الأموال يعرف المؤمن الكافر حتى أن الكافر يقول: يا مؤمن اقض حقي. ويقول المؤمن: يا كافر اقض حقي. وقال الحاكم في المستدرك: هذا حديث صحيح الإسناد وهو أبين في ذكر دابة الأرض ". ولم يخرجاه.

1 – أخرجه البخاري في ((الصلاة)) / باب: الصلاة في مواضع الخسف والعذاب (631/1 / ح 432)، وأيضاً في ((أحاديث الأنبياء)) / باب: قول الله عز وجل (والي ثمود أخاهم صالح) (436/6 / ح 3380 / 3381). وأيضاً في ((المغازي)) / باب: نزول النبي صلى الله عليه وسلم الحجر (4419/731/7، 4420). أيضاً في ((التفسير)) / باب: قول الله عز وجل (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين). (8/ 232 / 4702).

وكذلك..

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ الْمُؤمِنِينَ ﴾ [الذاريات: 35].

﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: 35].

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الألِيمَ ﴾ [الذاريات: 37].

وتبقي الخرجة الثالثة من مكة وبالتحديد من بين الصفا والمروة ليثبت للناس الإيمان كما ثبت عليهم الكفر.

ولتكون الخرجات من خير الأماكن وشرها.

ولتكون الخرجات شهادة على أعمال.

وبعد تفسير الحكمة في الدابة وختم العمل.. يبقى بعد التفسير تساؤل مهم..

فقد علمنا أن الأرض خاتمة للعمل، خرجت في صورة دابة ؟.

والحقيقة أن الإجابة على هذا التساؤل واردة نصاً في آية خروج الدابة:

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل: 82].

والأرض ستكون في صورة دابة ؛ لأن الناس لم يؤمنوا بآيات الله مع المرسلين، ولما كان إرسال المرسلين تكريماً للبشر وقد كفر الناس بهم فكان لابد أن تبقى الآيات ولكنها مجتمعة في الدابة ؛ حطاً من شأن الناس الذين كفر عامتهم ومن هنا كانت الدابة جامعة لأهم هذه الآيات (آيات المرسلين).

أو إنهم لما غرقوا في معاصٍ وكبائر وكفر صاروا أقرب شبهاً من البهائم والأنعام في هرجهم وجنونهم فتناسب أن تبعث الدابة.

ففي تفسير قول الله تعالى: ﴿ وإذا وقع القول عليهم ﴾ أي لم يأمروا بمعروف ولم ينهوا عن منكر[155]. وأيضاً عن أبي العالية أنه فسر: ﴿ وقع القول عليهم ﴾ بما أوحي إلى نوح: ﴿ أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾[156].

والدليل على ذلك قول الله تعالى:(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا 43 أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا 44 ﴾ [الفرقان: 43، 44].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ 179 ﴾ [الأعراف: 179].

---

1 – أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (2 / 71) وابن أبي حاتم (9 / 2921 / 16585). وانظر ((فتح القدير)) (ح9878).

2 – أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (20 / 9). وابن أبي حاتم (9 / 2922 / ح 16561). وانظر ((فتح القدير)) (ح. 1988).

فهذه النصوص وغيرها تؤكد أن الكافر وصاحب المعصية أو الكبيرة من أقرب الناس بالبهائم فإذا كثر هذا الصنف في الناس في أخر الزمان كانوا أقرب إلى البهيمة التي تناسب خروج الدابة لهم كما سيتضح ذلك بإذن الله.

والحقيقة كذلك إن الآيات التي اجتمعت في الدابة يوجب تحديدها على تساؤل أخر... وهو السلطان الذي أتت به الدابة لتختم الإنسان فكان تحديد الآيات هو منشأ هذا السلطان.

فقد وضح من الحديث، إن الآيات هي: عصا موسى [157].

فقد كان لعصا موسى وهي أداة التفريق في معجزة موسى (البحر وأكل ثعابين السحرة وضرب الحجر وإخراج الماء... الخ).

وخاتم سليمان.

وكذلك كان خاتم سليمان وهو أداة التسخير في معجزة سليمان.

ولذلك كانت أداة تسخير الناس كما كان العصا أداة تفريقهم.

وعلى الرغم من القدرة الهائلة والسلطة العظيمة للدابة التي تُثْبتها النصوص الواردة مثل عبارة: " لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب " [158].

فإن هذه النصوص بذاتها تثبت أيضا أنها محكومة بقدر الله عز وجل. ولعل إثبات ذلك من النصوص أمر مهم...

فقد سبقت العبارة الدالة على القدرة المذكورة آنفاً عبارة تقول: " وتثبت عصابة من المؤمنين عرفوا أنهم لن يعجزوا الله ".

فالدابة – في تصور المؤمنين – لا تتحرك إلا بإذن الله عز وجل...

كما خرجتها ستكون محكومة من حيث الأثر والذكر... حيث لن يفشوا ذكرها مكة، إلا في الخرجة الثالثة بعد أن يدخل ذكرها مكة دون أن يفشوا في الخرجة الثانية حيث ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الدابة لها ثلاث خرجات من الدهر فقد خرجت من أقصى البادية ولا يدخل ذكرها القرية (مكة) ثم تكمن زماناً طويلاً. ثم تخرج خرجة أخرى دون ذلك فيفشوا ذكرها في البادية، ويدخل ذكرها " [159] يعني (مكة).

ولعل أروع الألفاظ الدالة على أن الدابة محكومة هي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الدابة لها ثلاث خرجات من الدهر ؛ لآن الدهر هو الدليل على خضوع الزمان وأحداث الزمان لإرادة الله عز وجل. بدليل قول رسول الله

---

1 – أخرجه أحمد في ((مسنده)) (5 / 295 /491). وابن ماجة في ((الفتن)) / باب: دابة الأرض (2 / 1351 / ح 4066). والترمذي في ((التفسير)) / باب: من سورة النمل (5 / 340 / ح 3187). قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. وقال أحمد شاكر في تعليقه على المسند (15 / 97 / ح 7924). إسناده صحيح من حديث أوس بن خالد عن أبي هريرة.

2 – أخرجه الحاكم وصححه وتقدم بتمامه.

1 – الحاكم وصححه تقدم فيما قبله.

صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: " لا تسبوا الدهر ؛ فأن الدهر بيدي الليل والنهار أقلبهما حيث أشاء فلا يكون شيء من الدهر إلا بإذن الله ". ومن هنا كان النهي عن سب الدهر ؛ فان الأيام والليالي بيد الله عز وجل [160]

وهذه هي الحكمة – بصفة عامة – في فهم علامة الدابة.

ولكن هذه الحكمة لها بقية تفسرها بصورة كاملة.

وهي ظاهرة في العلاقة بين الأرض وعمل الإنسان (العلاقة الأولى، المذكورة آنفاً) والتي كان دليلها قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أَمَّهَاتِكُمْ ﴾[النجم: 32]

فقد ذكر الله مع علاقة الأرض بالإنسان علاقة أخرى وهى الوراثة التي تبدأ في بطون الأمهات: ﴿وَإِذْ أنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أَمَّهَاتِكُمْ ﴾.

والوراثة ترجع إلى آدم.. وهو أصل الوراثة.

ومن هنا أصبح يحكم عمل الإنسان مادة الخلق وهي الأرض وأصل الخلق

وهو آدم.

وكما ينتهي حكم الأرض على عمل الإنسان بالختم.

فيبقى لحكم آدم – كأصل الوراثة – على عمل الإنسان نهاية توازي الختم وهي بعث أهل الجنة والنار عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

" أول من يُدعي يوم القيامة آدم، فتراءى ذريته، فيقال: هذا أبوكم آدم فيقول: لبيك وسعديك فيقول: أخرجْ من كل مائة تسعة وتسعين " [161].

وفي هذا الإطار تُفهم علامة الدابة.

- لماذا تخرج الدابة من الأرض ؟
- لماذا تخرج في صورة دابة ؟
- لماذا تخرج من أماكنها المحددة ؟
- لماذا تخرج ومعها عصا موسى وخاتم سليمان ؟
- لماذا تختم على أعمال العباد ؟

والإجابة على هذه التساؤلات هو إطار فهم هذه العلامة.

الباب الثالث

التصور المنهجي العام

---

2 – البخاري في تفسير باب / سورة الجاثية (8/ 437 / ح 4826)، وفي الأدب / باب: لا تسبوا الدهر (10 / 580 / 1181) وفي التوحيد / باب: قول الله تعالى: (ويريدون أن يبدلوا كلام الله) (13 / 472 / 7491). ومسلم في ((الألفاظ من الأدب)) / باب: ما يقي عن الدهر (8 / 15 / 2) من حديث أبي هريرة. وانظر ((القواعد المثلى)) (ص13).

1 – أخرجه البخاري في ((الرقاق)) / باب: الحشر (11 / 385 / ح 6529).

إذا كانت العلامة هي أفعال الله الجامعة في نهاية الدنيا وبداية الآخرة تحقيقاً لإيمان الناس.فإن الباب الثالث يكون تفسيراً لعبارة (تحقيقاً لإيمان الناس) أو التصور المنهجي العام ويتكون من: الفصل الأول: المضمون الإنساني:

– المستوي الذاتي الفردي.

– المستوى البشري الأممي.

– حقائق ثابتة.

– حقائق جامعة:

* العبادة. * القتال.

* الحكم. * الضعف.

* البدء والإعادة.

الفصل الثاني: أ– محاور الترتيب.

ب– التركيز اللفظي.

وطبقاً لعبارة: (تحقيقاً لإيمان الناس) في التعريف نواصل التصور العام للعلامات.

فبعد طرح التصور المنهجي الخاص لكل علامة ننتقل إلى التصور المنهجي العام لمجموعة العلامات، مما يعني في الأساس تحديد العلاقة بين كل علامة والأخرى. والعلاقة بين العلامات لا تعنى إلا مناقشة ترتيب العلامات ؛ لأن العلاقة لا تخرج عن حدود هذا الترتيب.

وترتيب العلامات لا يقل شأناً عن العلامات ذاتها، والتصور المنهجي لهذا الترتيب لا يقف عند حد الترتيب الزمني ؛ لأن الترتيب الزمني معلوم وثابت.

أما التصور المنهجي للترتيب فهو الذي يقتضي تحديد المحاور الأساسية التي يدور عليها ترتيب أحداث العلامات..

وتحديد هذه المحاور سينشئ – بدوره – مضموناً فكرياً للتصور المنهجي العام للعلامات:

ولما كانت العلامات لتحقيق إيمان الناس لزم أن يكون الارتباط بين العلامات والناس علاقة أساسية.

فالعلامات للإنسان يتم الإخبار عنها بقدر عقله.

ولكن العلاقة بين العلامات والإنسان لا تقف عند هذا الحد بل إن الأساس في هذه العلامة شيء جوهري، وهو أن يكون الإنسان مضموناً للعلامات.

وبهذا المضمون يبدأ طرح التصور العام لها.

الفصل الأول

المضمون الإنساني للعلامات

فالإنسان دليل على الساعة من حيث خلقته و طبيعته، ولابد أن يمتد الاستدلال بالإنسان على الساعة من خلال علاماتها أيضا فيصبحَ الإنسان في زمن كل علامة دليلاً قائماً على الساعة. وذلك بتغير أحواله ليتوافق مع مقتضيات النهاية الكونية.

والمضمون الإنساني للعلامات له مستويان:

المستوى الذاتي الفردي.

المستوى البشري الأممي.

المستوى الذاتي الفردي:

والأساس في تفسير علاقة الإنسان بالعلامات هو أن نعلم أن الإنسان ذاته دليل جوهري على القيامة.

1. من حيث خلقته أصلاً في بطن أمه ؛ لقول الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ 12 ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ 13 ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ 14 ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ 15 ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ 16 ﴾ [المؤمنون].

ويوافق الآية في معناها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود–رضي الله عنه قال: "حدثنا

رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ,قال: إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفه ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغه مثل ذلك ,ثم يرسل أليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات:يكتب رزقه,وأجله,وعمله,وشقي أو سعيد " [162].

حيث جمع الحديث بين الإنسان بنوعه وعمله في الدنيا وبين مصيره عند الله يوم القيامة.

2. ومن حيث طبيعته , قال تعالى: ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَة (1) ولا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَة (2) ﴾ [القيامة].

لأن النفس اللوامة هي التي تلوم صاحبها بطبيعتها. وهذا يعني وجود أصل الحساب علي الأعمال التي سيكون عليها يوم القيامة.

3. ومن حيث صورة الخلق، قال تعالى: ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَة (1) ولا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2) أَيَحْسَبُ الإنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (4) ﴾ [القيامة].

وشكل هذه العظام دليل على القيامة لأن عدم مساواة الأصابع دليل علي أن لكل شيء نهاية، لأن كل أُصْبُع من أصابعه له نهاية.

ومن حيث رده إلي أرذل العمر لتكون نهاية الكيان الإنساني كله ليكون ذلك دليلاً علي أن نهاية الوجود الإنساني كله.

﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ 5 ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ 6 ﴾ [الحج].

1– أخرجه البخاري في بدء الخلق / باب: ذكر الملائكة (350/6/ح 3208). ومسلم في ((القدر)) / باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (190/16/6. النووي). وأبو داود في السنة / باب: القدر (227/4/ح 4078).

وبهذا الاعتبار يجب أن تكون هناك علاقة بين الإنسان والساعة باعتبار أن الساعة هي نهاية الخلق عامة، والإنسان خاصة.

ولكن ما نعنيه بالمضمون الإنساني للعلامات ارتباطها بألصق وأعمق الصفات والخصائص الإنسانية ولنضرب لذلك مثلين:

الأمانة..

والعلم..

أما دليل جوهرية الأمانة والعلم بالنسبة للإنسان فهو أسلوب رفعها.

ففي رفع الأمانة قال صلى الله عليه وسلم: " ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت ثم ينام النومة فتقبض فيبقى في أثرها مثل أثر المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبراً ليس فيه أي شيء يبايعون ولا يكاد أحد يؤدي الأمانة، فيقال إن في بني فلان رجلاً أميناً، ويقال للرجل ما أعقله وما أظرفه وما أجلده، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان "[163].

والملاحظة المنهجية في الحديث هي أن الأمانة لا تقبض من قلب الرجل إلا وهو نائم، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " ينام الرجل النومة.....". " ثم ينام النومة " وتفسير هذه الملاحظة يرجع إلى حقيقتين:

حقيقة الأمانة....

حقيقة مكانها في الإنسان...

أما حقيقة الأمانة فهي التكليف كما قال ابن عباس وفسر ذلك بقوله: ((إن أحسنت جُزيت، وإن أسأت عُوقبت "[164].

والنوم هو الحال الذي يرفع فيه التكليف[165] فيناسب ذلك قبض الأمانة ؛ لأنها أصل التكليف فيناسب قبضها حال رفع التكليف.

وأما حقيقة مكانها فهو جذر قلوب الرجال (أي أصل قلوب الرجال). والنوم هو الحال الذي ينام فيه القلب ؛ لأن الذي لا ينام قلبه إذا نام هم الأنبياء فيناسب حال نوم القلب أن ترفع الأمانة من أصله.

وكما كان رفع الأمانة دليلاً على جوهرية المضمون الإنساني لعلامات الساعة فهناك رفع العلم وهو لا يختلف عن الأمانة في رفعها وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم: " إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا[166] بغير علم فضلوا وأضلوا ". ذلك لأن العلم الشرعي علم بالوحي. والوحي روح

1- أخرجه البخاري في ((الفتن)) / باب: إذا بقي في حثالة من الناس (13/42/ح 7086).

1- ذكره ابن أبي حاتم في ((تفسيره)) في قول الله تعالي: (إنا عرضنا الأمانة....).

2 - بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " رفع القلم عن ثلاث، عن النائم حتى يستيقظ والمجنون حتى يعقل، والعلام حتى يبلغ الحلم ".

3- أخرجه البخاري في كتاب العلم ح 98.

من الله:﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: 52]. ولذلك ناسب أن يكون رفع العلم بانتزاع الروح والموت وبذلك تأكد المضمون الإنساني في صفة الأمانة والعلم. واختيار مثل الأمانة والعلم في إثبات المضمون الإنساني للعلامات ليس فقط لأن الأمانة والعلم ألصق الصفات وأعمقها في كيان الإنسان بل لأن رفعها – في نفس الوقت – بداية لرفع الدين والكون، فرفع الأمانة بداية لرفع الأحكام.

بدليل قول رسول الله صلى عليه وسلم: " أول ما يُرفع من دينكم الأمانة وآخر ما يُرفع من دينكم الصلاة ". ورفع العلم بداية رفع واقع الدين والكون، كما قال صلى عليه وسلم: " يرفع العلم ويكثر الجهل ويفشو الزنى وتكثر الزلازل)).. حتى تكون الساعة الزلزال الأكبر.

المستوى البشري الأممي:

والصيغة المقدرة للوجود البشري بصورته الصحيحة هي الأمة الواحدة التي تعبد رباً واحداً..

وهذه الصيغة هي ضمان الوجود البشري حتى قيام الساعة.

ولما كانت العلامات هي مقدمة بين يدي الساعة.

فإن اعتبار هذه الصيغة القدرية للوجود البشري لابد أن يكون قائماً بصورة واضحة حتى هذه المرحلة.

يستدل لذلك بقوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح، من حديث المغيرة بن شعبة: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون " [167].

وفي رواية: " حتى تقوم الساعة ".

وفي رواية معاوية في الصحيح أيضاً بلفظ: " ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة. أو حتى يأتي أمر الله " [168].

وله شواهد عند مسلم من حديث جابر بن سمرة وعقبة بن عامر.

وأيضاً لابد أن يكون مفهوماً أن الساعة هي انهيار الوجود البشري. وأن الأمة هي الصيغة المقدرة لهذا الوجود.

ولذا فإن مفهوم الأمة سيبقى معنا في قضية العلامات وذلك باعتبار أن هذه العلامات هي مقدمة انهيار هذا الوجود، حتى قيام الساعة ذاتها.

والأمة.. عِرق ودين.

ولذلك ستكون حقيقة الأمة في تحليل العلامات من خلال العرق والدين، والخط الأول الذي سنتابع به حقيقة الأمة هو تحديد الأمم التي ستدخل مجال العلامات.

ونجدها اليهودية والنصرانية والإسلام..

ونجد أن عرق اليهود بنو إسحاق..

1- أخرجه البخاري في ((الاعتصام بالكتاب والسنة)) / باب: قول النبي: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق " وهم أهل العلم (7311/306/3).

2- أخرجه البخاري في ((الاعتصام بالكتاب والسنة)) / باب: قول النبي: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق " وهم أهل العلم (7312/306/3).

وعرق النصارى الروم بنو الأصفر..

وعرق الإسلام العرب بنو إسماعيل..

وأن ما يفسر مفهوم الأمة في إطار العلامات بصفة أساسية حقيقتان:

الحقيقة الفاصلة: التي تفصل بين الأمم الثلاث (حقائق الصراع).

وفيها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ".

الحقيقة الجامعة: التي تنتظم تحتها الأمم الثلاث (السنن الثابتة للأمة للاتجاه نحو النهاية)، ومثالها افتراق الأمة إلى فرق، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة "[169].

حتى يبلغ أمر الجمع بين الأمم الثلاث حد التقليد المطلق، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ". قالوا: اليهود والنصارى يا رسول الله ؟ قال: " فمن ؟ "[170].

وباعتبار أن الأمة عرق ودين فإن الحقيقة الجامعة للأمم الثلاث هي بقاء هذه الأمم حتى آخر العلامات، وبعدها يصير الدين ملة واحدة على يد عيسى عليه الصلاة والسلام.

ومثال الحقائق الجامعة هو:

اتفقنا أن الأمة عرق ودين.

بقاء هذه الأمم الثلاث حتى آخر العلامات ؛ بدليل أن الدين لن يكون ملة واحدة إلا على يد عيسى عليه السلام.

فمن حيث العرق فإن آخر آثار بني إسحاق هم السبعون ألفاً الذين سيغزون القسطنطينية مع المسلمين.

أما نهاية صيغة الأمة اليهودية فإن اليهود سيبقون عليها حتى يقاتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم.

1- أخرجه أحمد في ((مسنده)) (332/2) وأبو داود في ((السنة)) / باب: شرح السنة (197/4 / ح 4596) والترمذي في ((الإيمان)) / باب: ما جاء في افتراق الأمة (2640/25/5) وابن ماجة في ((الفتنة)) / باب: افتراق الأمم (1321/2/ ح3991) والحاكم في ((المستدرك)) (6/1) جميعاً من حديث أبي هريرة. وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (3915/723/3) عن انس رضي الله عنه قال الترمذي: حسن صحيح. وانظر ((فتح القدير)) (ح 2802).

2- أخرجه أحمد في ((مسنده)) (332/2) وأبو داود في ((السنة)) / باب: شرح السنة (197/4 / ح 4596) والترمذي في ((الإيمان)) / باب: ما جاء في افتراق الأمة (2640/25/5) وابن ماجة في ((الفتنة)) / باب: افتراق الأمم (1321/2/ ح3991) والحاكم في ((المستدرك)) (6/1) جميعاً من حديث أبي هريرة. وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (3915/723/3) عن انس رضي الله عنه قال الترمذي: حسن صحيح. وانظر ((فتح القدير)) (ح 2802).

أما أمة النصارى باعتبار عرقها فإنها ستبقى مع أمة النبي صلى الله عليه وسلم حتى آخر الزمان. بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم: " ستقوم الساعة ويكون الروم أكثر عدداً، أشد الناس عليكم الروم ومهلكهم مع الساعة " [171]، رواه أحمد كما قال: " تقوم الساعة والروم أكثر الناس " [172].

ومفهوم العرق في إطار العلامات لا ينتهي عند هذا الحد. بل سيكون له نطاق أوسع في الأمم، حيث يشمل علامة الدجال ويأجوج ومأجوج ؛ لأن الدجال ذُكر كعرق مقابل للعرب، وذلك باعتبار انتسابه إلى اليهودية.

بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " تغزون جزيرة العرب، تغزون فارس، تغزون الروم، تغزون الدجال " [173].

وقوله: " إنه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله آدم أعظم فتنة من الدجال. قالت أم شريك: يا رسول الله، فأين العرب يومئذ ؟ قال: العرب يومئذ قليل، وجلهم ببيت المقدس، وإمامهم رجل صالح " [174].

والحقيقة أن التقابل العرقي بين العرب والدجال يرجع إلى أصل العرب وهو سيدنا إسماعيل. حيث يكون مقدار الاقتراب من هذا النسب هو بمقدار التقابل مع الدجال.

أما الحقيقة الجامعة للمضمون الإنساني لعلامات الساعة بالمستوى الذاتي الفردي والبشري الأممي معاً فهي:

محور العبادة:

ذلك لأن العبادة علة الخلق وهي أساس المستوى الذاتي وهي كذلك شرط في قيام الأمة وهي المستوى الأممي ودليل المعنى الأول هو قول الله عز وجل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالأنسِ إلا لِيَعْبُدُونَ ﴾ [الذاريات: 56].

ودليل المعنى الثاني هو: (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون).

ولذلك قال الإمام القرطبي في إثبات العلاقة بين العبادة والسعادة:

(ولما كانت العبادة هي علة الخلق كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالأنسِ إلا لِيَعْبُدُونَ ﴾ [الذاريات: 56] كانت هي علة الوجود وأصبحت كذلك هي الصفة المرجحة للخير والتي تضمن بقاءه.

فإذا قطع التعبد لم يقرهم بعد ذلك في الأرض زمناً طويلاً [175].

---

1 – أخرجه أحمد في ((مسنده)) (230/4) من حديث المتورد القرشي.

2– أخرجه مسلم في ((الفتن)) / باب: تقوم الساعة والروم أكثر الناس (9 / 249/ ح 2898). وأحمد في ((مسنده)) (230/4).

3 – أخرجه مسلم في ((الفتن)) / باب: ما يكون من فتوحات المسلمين قبل الدجال (253/9/ح 2900). وأحمد في ((مسنده)) (178/1). وابن ماجة في ((الفتن)) / باب: الملاحم (1370/2/ح 4091).

4 – أخرجه أبو داود في ((الفتن)) / باب: خروج الدجال (115/4/ ح 4322). وابن ماجة في ((الفتن)) / باب: خروج عيسى وخروج يأجوج ومأجوج (4077/1359/2). من حديث أبي أمامة الباهلي.

1– في التذكرة ومختصر التذكرة للشعراني، ص: 141.

ولما كانت الدنيا وعلامات الساعة هما زمناً واحداً لهذا الوجود، كانت العبادة في هذا الزمن الواحد حتماً مقضياً وإلا كان الهلاك والعدم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم في الدجال: " وإن أيامه أربعون سنة، السنة كنصف السنة، والسنة كالشهر والشهر كالجمعة وآخر أيامه الشررة يصبح أحدكم على باب المدينة فلا يبلغ بابها الآخر حتى يمسي. فقيل له: يا رسول الله كيف يصلى في تلك الأيام القصار ؟ قال: تقدرون فيها الصلاة كما تقدرونها في هذه الأيام الطوال ثم صلوا " [176].

ودليل حتمية العبادة في إطار علامات الساعة هو تأخير رفع الصلاة إلى ما قبل الساعة مباشرة. ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أول ما يرفع من دينكم الأمانة، وآخر ما يرفع من دينكم الصلاة " [177].

ومن أجل أن معنى العبادة بحتميتها حتى قيام الساعة كانت العبادة مقياساً دقيقاً للوجود من بدايته إلى نهايته فقال صلى الله عليه وسلم: " مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملا يوما إلى الليل على أجر معلوم، فعملوا إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا، وعملنا باطل. فقال لهم: لا تفعلوا، أكملوا بقية يومكم وخذوا أجركم، فآبوا وتركوا. واستأجر آخرين بعدهم، فقال: أكملوا بقية يومكم، ولكم الذي شرطت لهم من الأجر، فعملوا حتى إذا كان العصر قالوا ما عملنا باطل، ولك الأجر الذي جعلت لنا فيقال: اكملوا بقية عملكم فإن ما بقى من النهار شيء يسير فأبوا فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس فاستكملوا أجر الفرقين ؛ فذلك مثلهم مثل.... " [178].

ولكن العبادة وأن كانت أساسياً للوجود الإنساني في جميع مراحل الخلق، إلا أنها تأخذ صيغاً مناسبة لكل مرحلة من هذه المراحل.

فالعبادة في الدنيا مرتبطة بالرسالة والشريعة ؛ لتحقيق صفة الخير المرجحة لبقاء الدنيا حتى مرحلة البرزخ.

والعبادة في البرزخ مرتبطة بعلامات الخير لتحقيق صفة الخير المرجحة لبقاء الدنيا حتى قيام الساعة. بصرف النظر عن الرسالة والشريعة التي سترفع في هذه المرحلة.

وفي ارتباط العبادة بعلامات الخير أدلة مباشرة:

منها المهدي ؛ فإن بيعته وبداية ظهوره ستكون وهو قائم بين المقام والحجر (حجر إسماعيل)، وهو أفضل موضع للعبادة على الإطلاق، وهو موضع عبادة سيدنا إبراهيم وسيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام [179] ومنها نزول عيسى ابن مريم فإنه ينزل عند المنارتين البيضاويتين لمسجد دمشق

1- أخرجه ابن ماجة في ((الفتن)) / باب: فتنة الدجال وخروج عيسى ابن مريم وخروج يأجوج ومأجوج (2/ 1359 / ح 4077). وتقدم من حديث أبي أمامة الباهلي.

2 - تقدم تخريجه.

3- تقدم تخريجه.

1 - تقدم تخريجه.

[180] وستكون أول أعماله هي صلاة الصبح مع المسلمين خلف المهدي في بيت المقدس وهو آخر مواضع العبادة لذلك [181].

وكذلك خروج الدابة من موضع الخير بعد موضعي الشر ليكون هذا الموضع هو ما بين الصفا والمروة.

بعد حقيقة العبادة باعتبارها شرط بقاء الأمة تأتي حقيقة القتال.

محور القتال:

وهو الأمر الذي سيبقى حتى ظهور عيسى ابن مريم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال " [182]. وقال صلى الله عليه وسلم: " لا تزال طائفة من أمتي تقاتل على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم عند طلوع الفجر، ببيت المقدس ينزل على المهدي فيقال: تقدم يا نبي الله فصل بنا، فيقول هذه الأمة بعضهم على بعض " [183].

وبعد حقيقة القتال يكون الحكم الذي يقوم بعد القتال وتكون به الخلافة.

محور الحكم:

كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضا فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت ".

وبذلك تكون علامات الساعة في إطار جميع الأمم دائرة على هذه الحقائق الثلاث، ولكن هناك بالنسبة للأمة الإسلامية حقيقة خاصة بها وهي آخريتها وبقاؤها حتى آخر الزمان.

وحتى عندما يذكر ضعف الأمة وغلبة الأمم عليها فيجب أن يفهم ذلك من خلال هذه الحقيقة الخاصة.

فمثلاً عندما نقرأ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: " توشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ ؟ ! قال بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن فقال قائل: يا رسول الله. وما الوهن ؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت " [184]. فعندما نحاول فهم هذا الحديث

---

2 – وهو من حديث النواس بن سمعان، وتقدم.

3- تقدم تخريجه.

3 – أخرجه أحمد في ((مسنده)) (429/4). وأخرجه أبو داود في ((الجهاد)) / باب: في دوام الجهاد (4/3/ح 2484) من حديث عمران بن حصين.

1- أخرجه مسلم في ((الإمارة)) / باب: قوله صلى الله عليه وسلم لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين (1923/75/7). وأحمد في ((مسنده)) (384/345/3) من حديث جابر بن عبد الله وتقدم تخريجه.

2 – أخرجه أحمد في ((مسنده)) (278/5). وأخرجه أبو داود في ((الملاحم)) / باب: تداعى الأمم على الإسلام. (4297/108/4) من حديث ثوبان.

يكون ذلك في إطار أن هذه الأمة باقية إلى قيام الساعة، فلن يهلكها الضعف أمام الأمم السابقة، ولكن كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " هذه الأمة يهلك بعضها بعضًا ".

وباعتبار آخرية أمة النبي صلى الله عليه وسلم كان قياس زمن الدنيا مرهوناً ببقاء هذه الأمة.

ومنها قول النبي صلى الله عليه وسلم:

❃ الآن مثل آجالكم في آجال الأمم قبلكم كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس [185].

❃ ما أعماركم من أعمار مَن مضى إلا كما بقي من النهار فيما مضى منه [186].

❃ مثلنا ومثل أهل الكتاب كمثل رجل استأجر أجيراً [187].

وباعتبار آخرية أمة النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً كان ظهور هذه الأمة إنذارًا بالساعة من خلال علامة القمر.

وقد نبهت سورة القمر على اجتماع معني الإنذار في أمة النبي صلى الله عليه وسلم، فتنبهنا إلى الاعتبار الخاص لهذه الأمة في علامات الساعة ؛ لذا أصبحت كل أحوال هذه الأمة داخلة في إطار علامات الساعة.

وبعد تفسير الحقيقة الجامعة للمضمون الإنساني لعلامات الساعة بالمستوى الذاتي الفردي والبشري الأممي، نستمر في إثبات المضمون الإنساني للعلامات من خلال القاعدة العامة في العلامات وهي:

البدء والإعادة:

والحقيقة أن البدء والإعادة من أفعال الله الدالة على قدرته. ولكن مفهوم القدرة الإلهية من خلال البدء والإعادة هو في حقيقته مفهوم إنساني ؛ لأن إثبات القدرة لله من خلاله جاء بالقياس على العقل والتفكير والفهم الإنساني البحت، ودليل ذلك قول الله عز وجل: ﴿ أمن يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ إذ إن الحقيقة أن البدء عند الله مثل الإعادة، وليس عند الله سهل وصعب: ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾.

ولكن القرآن يخاطب البشر وقد استقر في أذهانهم أن الإعادة أهون فيثبت القدرة على أساس ما استقر من فهم في العقل البشري كما يخاطب القرآن العقل البشري على أن قاعدة البدء والإعادة هي منطلق الفهم الكامل لكل آيات الخلق: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى

---

4 – أخرجه البخاري في ((مواقيت الصلاة)) / باب: من أدرك ركعة من العصر قبل الغروب (557/46/2) ومن حديث سالم بن عبد الله عن أبيه.

1 – أخرجه أحمد في ((مسنده)) (116/2) و (ح 5966) من حديث بن عمر قال: كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم والشمس على قيقعان بعد العصر فقال: " ما أعماركم في أعمار من مضى إلا كما بقي من النهار فيما مضى منه ". وقيقعان: بضم القاف الأولى وكسر الثانية بلفظ التصغير وهو جبل بمكة إلى جنوبها نحو اثني عشر ميلاً. قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

2 – أخرجه البخاري في: ((مواقيت الصلاة)) / باب: ما أدرك ركعة من العصر قبل (46/2/ ح 558) من حديث أبي موسى.

اللَّهِ يَسِيرٌ 19 قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت20:19] .

وهذا هو المضمون الإنساني للبدء والإعادة من حيث الفهم.

ثم نأتي إلى المضمون الإنساني للبدء والإعادة من حيث التحقيق ؛ ليثبت أن الواقع الإنساني هو مجال تحقيق هذه القاعدة في سورة يونس: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ 31 فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ 32 كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ 33 قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ 34 ﴾ [يونس].

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ 60 أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ 61 أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ 62 أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ 63 أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ 64 ﴾ [النمل].

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ 17 وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ 18 يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ 19 وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ 20 وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ 21 وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ 22 وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ 23 وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مَاء فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ 24 وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ 25 وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ 26 وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ 27 ﴾ [الروم].

الفصل الثاني

التعامل مع النصوص

أ – الترتيب

ب – التركيز اللفظي

ج – التكرار

د – التفصيل

هـ – الإجمال

وفى إطار العبارة القائلة: (تحقيقاً لإيمان الناس) في تعريف العلامات نأتي إلي هذا التحقيق.. وهو الجامع لما سيأتي من موضوعات، وتحقيق الإيمان يعني ابتداء تحقيق الفهم الذي يكون بمعرفة أسس الإخبار، ومضمون الإخبار في العلامات يرجع أساساً إلي قضية ترتيب العلامات من حيث الحدوث، ثم التركيز اللفظي والتكرار والإجمال والتفصيل في النصوص، وهو الجزء المتعلق بالتعامل مع النصوص والمحقق لليقين من الناحية الذهنية.

القسم الأول

أساليب تحقيق اليقين

ثم نأتي إلي تحقيق اليقين من الناحية النفسية، بعناصره المختلفة مثل تحقيق التعايش والقرائن الحسية وتأييد الرؤية المباشرة والمعاينة والوصف وهو الأساس الأول في تحقيق اليقين من الناحية النفسية، ليكون آخره هو التوازن بين الفزع والتوكل، ثم التوازن في إسقاط العلامات علي الواقع.

وأولى حقائق الإخبار المستنبطة من التعامل مع النصوص هي التتابع.وهي أهم وأعم حقائق الإخبار، ومعناها نفي الفاصل الزمني بين العلامات عندما تبدأ.

وهو المعني المستنبط من قول رسول الله صلي الله عليه وسلم: " الآيات خرزات منظومات في سلك فإن يقطع السلك فيتبع بعضها بعضاً ".

وإذا كان التتابع هو انعدام الفاصل الزمني بين العلامات فإننا نجد أن العلاقة الزمنية تفوق معنى التتابع وتبلغ حد التداخل.

فعند ظهور المهدي نجده يبقي حتى يظهر الدجال، ويبقي المهدي في زمن عيسى ابن مريم حتى يقتل عيسي الدجال.

وبعد ظهور عيسي ابن مريم وبعد قتل الدجال.. يظهر يأجوج ومأجوج في زمن عيسي ابن مريم ؛ لأن عيسي هو الذي سيأوي بعباد الله إلي جبل الطور كما أمره الله عصمة من يأجوج ومأجوج.

أ- الترتيب (التتابع):

وقد جاءت نصوص الإخبار علي الترتيب بعدة اعتبارات، وكان من أهم هذه الاعتبارات:

- أن يكون الترتيب مرتبطاً في جوهره بعلة العلامة وحكمتها. مثل الإخبار عن الدابة والشمس بإطلاق دون ترتيب بينهما ؛ لأن العلة والحكمة فيهما واحدة زمنياً وهي انقطاع العمل البشري وتوقف التحول من الكفر إلي الإيمان وهو الزمن الذي أصبح ظهور واحدة منهما يكفي عن الأخرى.

ولذلك قال صلي الله عليه وسلم في العلامة من حيث الترتيب: " إذا طلعت إحداهما تبعتها الأخرى ".

- أن يكون الترتيب شرطاً ثابتاً بين العلامات وهو غير المثال الأول. حتى يبلغ شرط الترتيب أن تكون العلامة بذاتها علامة علي العلامة التي تليها. دون ذكر لفظ السبق أو ((واو العطف)) ومثال ذلك قول رسول الله صلي الله عليه وسلم:

- عمران بيت المقدس.. خراب يثرب..

خراب يثرب.. خروج الملحمة..

خروج الملحمة.. فتح القسطنطينية..

فتح القسطنطينية.. خروج الدجال.. [188]

فجاء تمام كل علامة شرطاً للعلامة التي تليها.

ومن الأمثلة الدالة علي ارتباط الترتيب بعلة العلامة هو قول رسول الله

صلي الله عليه وسلم بادروا بالأعمال ستاً...

طلوع الشمس من مغربها،

والدجال،

والدخان،

ودابة الأرض [189].

وكلها علاقة بالعمل. ولذلك بدأ الحديث بقوله: " بادروا بالأعمال ستاً ". والعلاقة هي الفرقان التام بين أعمال المؤمنين والكفار.

فالشمس وطلوعها من المغرب لا تتغير بعده الأعمال.

والدجال سيكون دليلاً – بفتنه – علي صعوبة الأعمال الصالحة ؛ لأن أتباعه سيكونون أصحاب الشر كله (اليهود، النساء، الشياطين).

والدخان سيكون فرقاناً بين المؤمنين والكافرين في أثره في الناس بحسب الأعمال فيخرج الدخان من جميع منافذ الكافر.

ويصيب المؤمن مثل الزكمة [190].

أما الدابة فهي صاحبة الخطم والختم. خطم الكافر علي أنفه وختم المؤمن بالإيمان وبذلك أصبح العمل محوراً للعلامات ومن هنا كان الترتيب.

- **ومنها إسقاط اعتبار الترتيب بين العلامات بصفتها الخاصة في إطار الإثبات العام الإجمالي لها.**

مثل ذكر مجموعة من العلامات باعتبارها مقدمة إجمالية بين الساعة ؛ ولهذا تجد إسقاط اعتبار الترتيب الخاص للعلامات إذا كانت مقدمة إجمالية للساعة.. غالباً ما نجد في مثل هذه الأحاديث عبارة: " لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتتل عليه من كل مائة تسعة وتسعون، فيقول كل رجل منهم لعلي أن أكون أنا أنجو " [191].

1- تقدم تخريجه.

1- أخرجه مسلم في ((الفتن))/باب: في بقية من أحاديث الدجال (312/9/ح2947)0وأحمد في ((مسنده)) (2/ 324) من حديث أبي هريرة وأخرجه أبن ماجة في ((الفتن)) / باب: الآيات (2/ 1348 / ح 4056) أنس بن مالك0

2- تراجع العلاقة بين الدجال والدخان في علامة الدجال.

1- أخرجه البخاري في ((الفتن)) / باب: خروج النار (7119/84/12)0 ومسلم في ((الفتن)) / باب: لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل.. (19/18/6). وأخرجه أبو داود في ((الملاحم)) / باب: حسران الفرات (4313/113/4) من حديث أبي هريرة وقد تقدم 0

" بين يدى الساعة أيام الهرج " فنعوذ بالله أن تدركنا وإياكم تلك الأيام ". [192]

" بين يدي الساعة كذابون منهم صاحب اليمامة ومنهم صاحب صنعاء العنسي، ومنهم صاحب حمير ومنهم الدجال وهو أعظم فتنة ". [193]

" بين يدي الساعة مسخ وخسف وقذف ". [194]

- ومنها التعبير عن الترتيب الثابت الواحد بين أمرين باعتبارات متعددة وأشهر ذلك.. العلاقة بين بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم كعلامة للساعة والساعة ذاتها.

مثلما جاء حديث الأشراط العشرة بترتيب لا يتفق مع الزمن وبروايات لا تتفق مع بعضها حيث جاء في صحيح مسلم:

عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال ما تذاكرون قالوا نذكر الساعة قال إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسي ابن مريم عليه السلام ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف، خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب.

ولعلنا نلاحظ عدم الترتيب الزمني للعلامات

رواية أخري تذكر الحديث بترتيب لا يتفق مع الترتيب الزمني ولا ترتيب هذه الرواية. فجاءت هذه العلاقة بعدة صيغ:

" بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بإصبعيه السبابة والوسطي " [195].

وفي صيغة أخرى يرتفع معنى التلازم إلي معنى التداخل فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: " بعثت في نفس الساعة " [196].

وفي صيغة: " بعثت في نفس الساعة " تأتي إضافة خطيرة وهي قوله عليه الصلاة والسلام: " وإن كادت لتسبقني " [197].

وإذا أردنا تفسيراً منهجياً لعبارة: " وإن كادت لتسبقني " فلا بد أن ننظر إلي الأحداث السابقة علي البعثة. ولعلها تكون بلوغ الواقع البشري حالاً من الشر يتماثل مع الواقع الذي سيكون عليه البشر عند قيام الساعة.

2- أخرجه أحمد في ((مسنده)) (90/4) من حديث خالد بن الوليد 0

3- أخرجه أحمد في ((مسنده)) (345/2) من حديث جابر بن عبد الله.

4 - أخرجه أبن ماجة في ((السنن)) / باب: الخسوف (1349/2/ح 4059).من حديث عبد الله بن مسعود

1- أخرجه مسلم في ((الفتن)) / باب: قرب الساعة (315/9/ ح 2951) من حديث أنس بلفظ ((وضم السبابة والوسطي))0 وأخرجه أحمد في ((مسنده)) (223/3) بلفظ ((أنتم والساعة كهاتين)) وأخرجه أحمد في ((مسنده)) (237/3) بلفظ ((ومد إصبعيه السبابة والوسطى)).

2- أخرجه الترمذي في ((الفتن)) / باب: ما جاء في قول النبي صلى الله عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين..)) (496/4/ح 2213).

3- أخرجه أحمد في ((مسنده)) (348/5) من حديث بريدة بن الحصيب.

ولعل المقارنة المعهودة بين حال البشر قبل البعثة ورجوع هذا الحال كشرط للساعة يؤكد هذا الاحتمال.. مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لن تقوم الساعة حتى تضطرب إليات نساء دوس حول ذي الخلصة " [198]. وهو فعل كان يفعل قبل البعثة، وسيفعل قبل الساعة.

وبذلك يكون سبق الساعة للبعثة هو حدوث (استحقاق) قيام الساعة قبل البعثة باعتبار الحال التي وصل إليها الناس.

ولعل الربط بين حال البشر قبل البعثة بالساعة والجنة والنار دليل آخر علي هذا الاحتمال، وهذا الربط هو في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله نظر إلي أهل الأرض فمقتهم عجمهم وعربهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً

ويقظاناً [199].

أما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: بعثت في نفس الساعة [200] فحقيقة ثابتة كاملة، يؤكدها ويفسرها حادثة إجلاء اليهود عن المدينة.

ومقتضى هذه الحقيقة أن تكون أحداث البعثة داخلة في أحداث الساعة. وهذا ما كان دليله قول الله عز وجل:

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (الحشر: 2)

مما يعني أن إجلاء اليهود كان أول الحشر وبدايته، بدليل ما ورد عن الحسن إذ قال: لما أجلي رسول الله صلى الله عليه وسلم بني النضير قال هذا أول الحشر وأنا علي الأثر. [201]

وفي تفسير الآية قال ابن عباس: من شك أن أرض المحشر ها هنا، يعني الشام، فليقرأ هذه الآية ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم آخرجوا قالوا: " إلي أين ؟ قال: إلي أرض المحشر " [202].

وكيفية الحشر الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم تؤكد هذا المعني أي تسوقهم إلى مكان حشرهم وهو أرض بلاد الشام. وقد ثبت في عدة أحاديث أوردها الحافظ ابن حجر في فتح الباري نقلاً عن القرطبي في بيان أنواع الحشر الأربعة وأن منهم اثنين في الدنيا، أحدهما المذكور في سورة

1- أخرجه البخاري ((الفتن)) / باب: تغير الزمان حتى تعبد الأوثان (7116/82/13). وأخرجه مسلم في ((الفتن)) / باب: لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة (2906/260/9) وأخرجه أحمد في ((مسنده)) (271/2) من حديث أبي هريرة.

2- أخرجه أحمد في ((مسنده)) (162/4).

3- تقدم تخريجه.

1- ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره في قوله (هو الذي أخرج الذين كفروا......) الآية (ح 18851).

2- ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره في قوله (هو الذي أخرج الذين كفروا......) الآية (ح 18850).

الحشر، والثاني الحشر المذكور في أشراط الساعة، تم عزو ذلك لحديث حذيفة بن أسيد عند مسلم مرفوعاً: " إن الساعة لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات ".[203]

عن عبد الله بن عمر رضى عنهما، أن رسول الله عليه وسلم قال: "ستخرج نار من حضرموت قبل يوم القيامة تحشر الناس. قلنا يا رسول الله فما تأمرنا ؟

قال: عليكم بالشام " [204]

عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

" إنكم تحشرون ونحا بيده نحو الشام، رجالاً، أي مشاة، وركباناً، أي راكبين علي الجمال، وتجبرون علي وجوهكم "[205].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ستكون هجرة بعد هجرة، فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم، أي بلاد الشام ويبقي في الأرض شرار أهلها تلفظهم أرضهم، وتقذرهم نفس الله، أي يكره الله خروجهم إلي الشام، ومقامهم بها، فلا يوفقهم لذلك فتحشرهم النار مع القردة والخنازير [206].

ولعلنا نلاحظ المقارنة في وصف من تحشرهم النار مع اليهود في قول

رسول الله صلى الله عليه وسلم: " فتحشرهم النار مع القردة والخنازير ". ولكن هذا الوصف مجرد ملحوظة تفيد في إثبات التشابه بين اليهود وبين حشر شرار الناس في آخر الزمان، " راغبين وراهبين واثنين علي بعير " [207]. أما المقارنة الواضحة الكاملة فهي التي عقدتها النصوص التي وردت في وصف جلاء اليهود عن المدينة والنصوص التي وردت في وصف أحوال الناس حين يساقون إلى الحشر، أما ما يتعلق بوصف اليهود فقد قال فيه ابن كثير في تفسير الآية، قول ابن أبي حاتم: " صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم بني النضير بعد أن غدروا به علي الجلاء بشرط ألا يأخذوا معهم السلاح، ولم يأذن لهم إلا في الإبل وكان نص الاتفاق: أن لهم ما أقلت الإبل من الأموال والأمتعة إلا الحلقة وهي السلاح[208]، وقد أعطي كل ثلاثة بعيراً وسقاءً " [209].

3- أخرجه مسلم في ((الفتن)) / باب: الآيات التي تكون قبل الساعة (2901/254/9). وأبو داود في ((الفتن)) / باب: أمارات الساعة (4311/112/4) والترمذي في ((الفتن)) / باب: ما جاء في العنف (2183/477/4) من حديث حذيفة بن أسيد.

1- أخرجه أحمد في ((مسنده)) (8/2) (4536)، (5312) (5146). والترمذي في ((الفتن)) / باب: ما جاء لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من قبل الحجاز (498/4/ح 2217) من حديث ابن عمر وذكره الحافظ (11 م 386) الفتح.-

2- أخرجه أحمد في ((مسنده)) (3/5). والترمذي في ((الفتن)) / باب: ما جاء في الشام (485/4/ح 4192) من حديث معاوية وذكره الحافظ (11 م 386) الفتح.

3- أخرجه أحمد ((مسنده)) (84/2). (5562 م) من حديث ابن عمر.

4 - أخرجه البخاري في ((الرقاق)) / باب: الحشر (384/11/ح 622). من حديث أبي هريرة.

1- أخرجه الحاكم في مستدركه(483/2). والبيهقي في ((الدلائل)) (178/3) وانظر فتح القدير (ح 11966). بلفظ ((كانت غزوة بني النضير – وهم طائفة من اليهود – علي راس أشهر من وقعة بدر وفيه)) حتى نزلوا علي الجلاء وعلي أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال إلا الحلقة يعني السلاح)).

وبذلك تحقق في وصف الحشر الأكبر في آخر الزمان واحد علي بعير واثنان علي بعير وثلاثة علي بعير.

بقي وصف آخر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكره في وصف الحشر الأكبر قبل تناوب البعير وتحقق في حشر اليهود وهو قوله صلى الله عليه وسلم: " راغبين وراهبين ".

وتحقق ذلك في اليهود وكان كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية، سببه أن اليهود قد انقسموا تجاه أمر الجلاء إلي فريقين، فريق راغب ؛ لأن هذا الجلاء قد ذُكر عندهم علي أنه آخر زمن الذل وأن ما سيكون بعد ذلك لهم خير مما سبق عليهم فكانوا هم (الراغبين).

أما (الراهبين) فكانوا المتمسكين بالمدينة الكارهين للجلاء. وبذلك خرجوا راغبين وراهبين واثنين علي بعير كما سيخرج الناس في آخر الزمان.

وكما جاء في حديث بيان أحوال الناس حين يساقون إلي الحشر في الشام ما رواه البخاري في صحيحه ومسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " يحشر الناس – أي إلي الشام – قبل قيام الساعة وهم أحياء علي ثلاث طرائق أي ثلاث أحوال: راغبين، وراهبين واثنان علي بعير "[210]. هذا معطوف علي محذوف وتقديره واحد علي بعير واثنان علي بعير وثلاثة علي بعير وأربعة علي بعير وعشرة علي بعير أي أنهم يتعاقبون علي ركوب البعير الواحد، فيركب بعضهم، ويمشي بعضهم، وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح حيث أصبحوا وتمسي معهم حيث أمسوا أن تلازمهم كل الملازمة إلى أ ن يصلوا إلي مكان الحشر، نسأل الله السلامة والعون.

القسم الثاني

وهو التعامل مع النصوص تحقيقاً لليقين من الناحية الذهنية

وأولها:

التركيز اللفظي:

إذ يجب الانتباه إلي الألفاظ ؛ لأنها لابد وأن تعني شيئاً.

وقد يكون اللفظ مفرداً ولكنه يتضمن قضية ضخمة وبُعداً كبيراً، مثل ذلك قول المسيح الدجال عندما رأي المدينة: (هذا قصر أحمد)[211].

فلماذا لم يقُل (محمد).

والفارق بين اللفظين يعني شيئاً كبيراً.

فاسم أحمد هو قول المسيح عيسي ابن مريم: ﴿ وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ (الصف: **6**).

والفرق بين الاسمين بالنسبة لعيسي ابن مريم هو الفرق بين الاسمين بالنسبة للدجال.

---

2 – أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (28/ 22) وانظر فتح القدير (ح 11968) بلفظ عن ابن عباس قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم قد حاصرها حتى بلغ كل منهم كل مبلغ وفيه: " وجعل لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاءً ".

1- تقدم.

1 – أخرجه أحمد في ((مسنده)) (3/338).

فاسم (محمد) مشتق من صيغة المبالغة (حمّاد).

واسم (أحمد) علي وزن (أفعل لك) ومعناه (أحمد لك) أي أزكّي لك وأختار لك. وهو تفسير العلاقة بين عيسي ابن مريم ومحمد عليهما الصلاة السلام.. وهو معني تبشير عيسي ابن مريم بمحمد عليهما الصلاة والسلام.

ولذلك قال ابن منظور في معجم (لسان العرب) [212]:

أحمد الرجل إذْ إن عيسي اختار للناس وزكي للناس دين محمد وإن لم يشهده بمعناه. وكما كان عيسي ابن مريم في رضاه عن دين النبي صلى الله عليه وسلم كان الدجال كذلك ولكن قبل خروجه.

ودليل ذلك سؤال الدجال عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الجسَّاسة

" قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل ؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب قال: أقاتله العرب ؟ قلنا: نعم، قال: كيف صنع بهم، فأخبرناه أنه قد ظهر علي مَن يليه من العرب وأطاعوه، قال لهم: قد كان ذلك ؟ قلنا: نعم، قال: أما أن ذاك خير لهم أن يطيعوه ".

وهكذا تنطلق القضايا وتتحدد الأبعاد من خلال لفظ (أحمد) في قول الله علي لسان عيسي: ﴿ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي منْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾.

وفي قول الدجال: (هذا قصر أحمد) دليل علي لهجة الغني المنسي التي يتكلم بها ؛ لأن المدينة ليست قصراً، ولم يحيا رسول الله صلى الله عليه وسلم حياة القصور.

ومن أمثلة الانتباه اللفظي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم.

" عمران بيت المقدس.. خراب يثرب " [213].

والملاحظة اللفظية أن النبي صلى الله عليه وسلم أطلق اسم يثرب علي المدينة، وهو الاسم الذي كان قد غيَّره قبل ذلك، وسماها المدينة.

ولكن إطلاق لفظ يثرب علي المدينة في هذا الحديث يكون معناه عودة المدينة لما كانت عليه قبل الهجرة، وخروج الإسلام منها كما دخلها مع الهجرة. ولذلك يعيد الرسول صلى الله عليه وسلم الاسم القديم إلي المدينة ليتفق اسمها مع حالها دائماً.

وفي إطار التركيز اللفظي..

نجد أن أهم القواعد المنهجية في الأخبار أن تدور الأحاديث بألفاظ متعددة حول حقيقة واحدة.. تتكامل فيها معاني الألفاظ لإثبات الحقيقة الواحدة بكل جوانبها ومثل ذلك حكم الناس الذين ستقوم عليهم الساعة حيث ورد فيهم عدة أحاديث منها:

قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن شر الناس الذين تقوم عليهم الساعة " [214]. وفي الحديث وصف لهم بالشر.

---

1 - اللسان (157/2) مادة حمد.

2 - تقدم تخريجه.

1- أخرجه أحمد في ((مسنده)) (435/1). وابن أبي شيبة في ((المصنف)) (345/3). وابن خزيمة رقم: 389.

ثم يأتي حديث آخر فيقول: " فبينما هم كذلك (أي المؤمنين) إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقي شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة " [215].

وفي الحديث إضافة وصفهم بتهارجهم تهارج الحمر.

ثم يأتي حديث ثالث ليصفهم بقوله:

" يتسافدون تسافد البهائم " [216].

وهو تعميق وتعميم للوصف السابق..

ثم يكون الحديث الرابع:

" ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقي علي وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه " [217].

قال (أي الراوي) سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " فيبقي شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون ؟! فيقولون: فما تأمرنا ؟! فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم في ذلك دار رزقهم حسن معيشتهم " [218].

وفي الحديث تطور في الوصف، في الحديث الأول مجرد كونهم شرار الناس ليأتي الحديث الثاني فيزيد في وصف أفعالهم تهارج الحمر وسيأتي الثالث ليعمق ويعمم (تسافد البهائم).

أما الحديث فإن الوصف يكون لهم ذاتهم يعني وصف ذات لا وصف فعل:

" في خفة الطير وأحلام السباع ".

وهو مقدمة للحديث الخامس، الذي يتضمن الحكم المبني علي هذه المقدمات.

" ستكون هجرة بعد هجرة، فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم أي بلاد الشام ويبقي في الأرض شرار أهلها " [219].

" تلفظهم أرضهم وتقذرهم نفس الله [220]، أي يكره الله خروجهم إلي الشام ومقامهم بها فلا يوفقهم لذلك [221]، فتحشرهم النار مع القردة والخنازير " [222]، وهذا هو الحكم المبني علي ما قد سبق.

2- تقدم تخريجه.

1-أخرجه البزار والطبراني وصححه ابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو، كذا قال الحافظ في ((الفتح)) (91/13) وسكت عليه.

2- أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة / باب: خروج الدجال (75/18/6. النواوى). وأخراجه أحمد في ((مسنده)) (2/ 166) والنسائي في ((الكبدي)) تفسير سورة المزمل (50/6/ح 11629) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

3 – أخرجه مسلم في ((الفتن)) / باب: خروج الدجال ومكثه في الأرض (310/9/ح 2940) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

1 – تقدم تخريجه.

2 – وفي الرواية: " ولا يُأبه بهم ".

3 – الكلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ليس تفسيراً من الراوي.

4 – تقدم تخريجه.

أما الملاحظة المنهجية الأخيرة فهي أن الجمع بين الحديث قبل الأخير الذي فيه " فيتمثل لهم الشيطان فيقول ألا تستجيبون ؟ ! فيقولون: فما تأمرنا ؟! فيأمرهم بعبادة الأوثان ".

والحديث الأخير فيحشرهم الله مع القردة والخنازير.

هذا الجمع ينشئ معني المسخ الوارد في قول الله عز وجل: ﴿ وَ جَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ [المائدة: 60]. حيث سيُحشرون مع القردة والخنازير وعبدة الأوثان.

ليصبح المعنى العام لمجموع الأحاديث هو إسقاط اعتبار إنسانية هؤلاء الناس فيكون آخر الناس وبقيتهم هم المؤمنين الذي سينجيهم الله من يأجوج ومأجوج، حيث يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " لن تقوم الساعة حتى يرفع الله بقية من أهل الأرض " وهذه هي البقية أما رفعها فهو ما ورد في هذا الحديث الأخير.

وفي إطار التركيز اللفظي نجد الألفاظ المتعددة ذات المعني الواحد، أخرج الترمذي عن عائشة قالت: " يا رسول الله ﴿ والأَرْضُ جمِيَعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ والسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتُ بِيَمِينِه سُبْحَانَّهُ وتَعَالَي عَمَّا يُشْرُكُون ﴾ [الزمر: 67]، فأين يكون المؤمنين يومئذ ؟ قال: علي الصراط يا عائشة " [223]، حديث حسن صحيح.

عن مجاهد قال: ابن عباس: أتدري ما سعة جنهم ؟ قلت: لا. قال:

أجل والله ما تدرى، حدثتني عائشة أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله: ﴿ والأَرْضُ جمِيَعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ والسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتُ بِيَمِينِه ﴾ قالت: قلت: فأين الناس يومئذ يا رسول الله ؟ قال:" علي جسر جنهم " [224].

والجمع أن الصراط دون الجسر ثم ينتقل الناس منهما إلي الأرض (الساهرة).

كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ستخرج نار من حضرموت قبل يوم القيامة تحشر الناس. قلنا: يا رسول الله فما تأمرنا ؟ قال عليكم بالشام " [225]. في رواية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أول أشراط الساعة نار تحشر الناس من المشرق إلي المغرب " [226].

ووجه الجمع أن كوْن النار تخرج من حضرموت أو قعر عدن إلي الشام لا ينافيها حشرها من المشرق إلي المغرب.

ذلك أن ابتداء خروجها سيكون من حضرموت وبالتحديد من قعر عدن فإذا خرجت انتشر إلي المغرب إرادة تعميم الحشر، لا خصوص المشرق والمغرب، وأما جعل الغاية إلي المغرب فإن الشام بالنسبة إلي المشرق مغرب.

كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تقوم الساعة إلا علي شرار الناس "، وقال صلى الله عليه وسلم: " لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون علي

---

1 – أخرجه الترمذي في ((تفسيره)) باب: سورة الزمر (3243/48/5). وانظر فتح القدير (ح 7466). من حديث عائشة.

2– أخرجه الترمذي في ((تفسيره)) باب: سورة الزمر (3241/48/5). من حديث عائشة.

3 – تقدم تخريجه.

4 – أخرجه البخاري في ((الفتن)) / باب: خروج النار (13 / 84 / معلقاً).

أمر الله قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم علي ذلك فقال عبد الله: أجل ثم يبعث الله ريحاً كريح المسك مَسُّها مس الحرير فلا تترك نفساً في قلبه مثقال حبه من الإيمان إلا قبضته ثم يبقي شرار الناس عليهم تقوم

الساعة " [227]. موقوف صحيح.

قال الحافظ: قد أشكلوا علي ذلك حديث: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علي الحق حتى يأتي أمر الله " فإن ظاهر الأول أنه لا يبقي أحد من المؤمنين فضلاً عن القائم بالحق، وظاهر الثاني البقاء ويمكن أن يكون المراد بقوله: " أمر الله " هبوب تلك الريح، فيكون الظهور قبل هبوبها فبهذا الجمع يزول الإشكال

بتوفيق الله.

فأما بعد هبوبها فلا يبقي إلا الشرار وليس فيهم مؤمن، فعليهم تقوم الساعة وعلي هذا فآخر الآيات المؤذنة بقيام الساعة هبوب تلك الريح [228].

ومن أمثله الجمع بين النصوص ما ورد من أحاديث في حشر آخر الزمان وقد أوردها الإمام ابن حجر في كتاب فتح الباري.

حيث جاء في حديث عبد الله بن عمر أن حضر موت هي أرض المحشر. وفي حديث أنس بن مالك أن الحشر من المشرق إلي المغرب، وفي حديث حذيفة بن أسيد أن الحشر يبدأ بنار تخرج من قعر عدن [229].

ووجه الجمع بين هذه الأخبار أن كون النار تخرج من قعر عدن لا ينافي حشرها من المشرق إلي المغرب وذلك ابتداء خروجها من قعر عدن فإذا خرجت انتشرت إلي المغرب فإن الشام بالنسبة إلي المشرق مغرب.

قال الحافظ: قد أشكل الجمع بين هذه الأخبار وظهر لي فيوجه الجمع أن كونها تخرج من قعر عدن لا ينافي حشرها الناس من المشرق إلي المغرب وذلك أنا ابتداء خروجها من قعر عدن فإذا خرجت انتشرت في الأرض كلها.

والمراد بقوله: " تحشر الناس من المشرق إلي المغرب " إرادة تعميم الحشر لا خصوص المشرق والمغرب، أو أنها بعد الانتشار أول ما تحشر أهل المشرق، ويؤيد ذلك أن ابتداء الفتن دائماً من المشرق كما سيأتي تقريره في كتاب الفتن، وأما جعل الغاية إلي المغرب فلأن الشام بالنسبة إلي المشرق مغرب، ويحتمل أن تكون النار في حديث أنس كناية عن الفتن المنتشرة التي أثارت الشر العظيم والتهبت كما تلتهب النار، وكان ابتداؤها من قبل المشرق حتى خرب معظمه وانحشر الناس من جهة المشرق إلي الشام ومصر وهما من جهة الغرب كما شوهد ذلك مراراً من المغول من عهد جنكيز خان ومن بعده، والنار التي في الحديث الآخر علي حقيقتها والله أعلم [230].

---

1 – تقدم تخريجه: صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

2 - الفتح (13/91- 92).

1- ذكره الحافظ في الفتح (11/386).

2 - الفتح (11/ 386).

التكرار:

إن الانتباه إلى صيغ الإخبار يجب أن يكون بدقة متناهية ؛ لأن كل صيغة تحمل دلالتها التي يجب فهمها. فمثلاً، عندما نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرر في حديث (يوم الخلاص) هذه العبارة ثلاث مرات: فيقول:

يوم الخلاص ما يوم الخلاص...

يوم الخلاص ما يوم الخلاص...

يوم الخلاص ما يوم الخلاص...[231]

تنظر إلى علة التكرار فنجد أنها إما أن تكون للتنبيه فيتجه تفكيرنا إلي أهمية هذا اليوم.

وإما أن يكون ذلك ؛ لأن الحديث ينص علي أنه في يوم الخلاص تخرج المدينة ثلث منافقيها ثم كل منافقيها، ومن أجل ذلك كان التكرار. ويمكن أن يكون للأمرين معاً.

التفصيل:

وهو من عناصر تحقيق اليقين وأهم الأدلة عليه:

– قول رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذكر الملحمة.. فبينما هم كذلك إذ سمعوا بناس هم أكثر من ذلك، فجاءهم الصريخ، فقال: أن الدجال قد خرج في ذراريهم فيرفضون ما بأيديهم ويقبلون فيبعثون عشر فوارس طليعة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني لأعرف أسماءهم وأسماء آباءهم وألوان خيولهم هم خير فوارس علي ظهر الأرض أو خير فوارس يومئذ [232].

وواضح من الحديث عنصر التفصيل في وصف الفوارس وخيولهم.. مما يزيد الإنسان يقيناً بالحدوث.

– وفي حديث النفخ في الصور يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم حال أول من سيسمع: " ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً، قال: فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله فيُصعق ويُصعق الناس" [233].

وفي حديث هدم الكعبة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " كأني به أسود[234] أفحج يقلعها حجراً حجراً " [235].

– قول النبي صلى الله عليه وسلم في آخر الحشر:

" تتركون المدينة علي خير ما كانت لا تغشاها إلا العواف – يريد عوافي السباع والطير – وآخر من يحشر راعيان من مُزينة يريدان المدينة ينعقان بغنمهما فيجدانها وحشاً حتى إذا بلغا ثنية الوداع خرّا علي وجوههما " [236].

---

[231] - تقدم تخريجه.

1- أخرجه مسلم في ((الفتن)) باب: إقبال الروم في كثير القتل عند خروج الدجال (2899/251/9).

2 – أخرجه مسلم في ((الفتن)) باب: خروج الدجال ومكثه في الأرض (201/9/ح 2940). وقد تقدم.

3 – يقصد ذي السويقتين من الحبشة.

4- أخرجه البخاري في ((الحج)) باب: هدم الكعبة (583/2/ح 1595) من حديث ابن عباس.

5- أخرجه البخاري في ((فضائل الساعة)) باب: من رغب عن المدينة (1874/107/4)، من حديث أبي هريرة.

وثنية الوداع هي المكان الذي ظهر منه النبي صلى الله عليه وسلم للذين كانوا ينتظرونه فوق أعالي النخيل فرأوه قبل أن يدخل المدينة [237].

وتحديد موت الراعين بهذا المكان معناه أنهما سيموتان قبل أن يدخلاها ؛ ليكون دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أول عمارها ويكون موت الراعيين قبل دخول المدينة آخر خرابها.

الإجمال:

وفيه هذا الحديث، عن حذيفة قال: " قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً ما ترك فيه شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حَّدث به. حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء وأنه ليكون منه الشيء قد نسيته فذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم رآه فعرفه " [238].

قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً: " فخبرنا عن بدا الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم، هل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه " [239].

القسم الثالث:

أساليب تحقيق اليقين من الناحية النفسية

تحقيق التعايش:

من خلال الموضوعية بين المضمون وحال الإخبار.

خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عاصب إصبعه ولدغه عقرب

" إنكم تقولون لا عدو [240] لكم إنكم لا تزالون تقاتلون عدواً حتى يأتي يأجوج ومأجوج عراض الوجه صغار العيون شهب الشعاف من كل حدب ينسلون كأن وجوههم المجان المطرقة ". والعلاقة الموضوعية هي أن لدغ العقرب دليل علي بقاء القتال ؛ لأن القتال والعداء متلازمان. ولذلك بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم أن آخر القتال هو قتل الدجال، فقال: " لا تزال طائفة من أمتي.. حتى يقاتل آخرهم الدجال " [241].

فعندما يتوقف القتال لا يكون عداء ولا يكون لدغ، وهذه هي العلاقة الموضوعية بين القتال ولدغ العقرب..

6- أخرجه البيهقي في الدلائل (506/2، 507) عن عائشة وعزاه الحافظ في الفتح (307/7) في شرح حديث البراء في باب مقدم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة، حديث رقم (3925): لأبي سعيد في كتابه=
=((شرف المصطفي)) ورويناه في ((فوائد الخلقي)) من طريق عبيد الله عن عائشة منقطعاً، لما دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة جعل الولائد يقلن: طلع البدر علينا من ثنية الوداع وجب الشكر علينا ما دعا لله داعٍ..

1- أخرجه مسلم في ((الفتن)) باب: إخبار النبي صلى الله عليه وسلم فيما يكون إلى قيام الساعة (242/9 / ح 23)، من حديث حذيفة رضي الله عنه.

2 – أخرجه البخاري في ((بدء الخلق)) باب: ما جاء في قول الله تعالي: (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) (331/6/ح 3192) من حديث عمر رضي الله عنه.

1 – أخرجه أحمد في مسنده (271/5).

2- تقدم تخريجه.

وهناك علاقة بين العقرب وبين أعدائنا وهي إباحة قتل الجميع في الحل والحرم. قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنْ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَال فِيهِ قُلْ قِتَالُ فِيه كَبِيرُ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرُ بِهِ وَالْمسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرَ عِنْد اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنْ الْقَتْلِ ﴾ (البقرة: **217**).

فأباح قتال العدو في الأشهر الحرام فقال صلى الله عليه وسلم في ابن خطل: اقتلوه ولو رأيتموه متعلق بأستار الكعبة [242]. وقال صلى الله عليه وسلم: خمس فواسق يُقتلن في الحل والحرام فذكر منها العقرب [243].

وهناك علاقة بينهما أخرى أن الاثنين لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة، وهو يصلي أو لا يصلي، نبي أو ولي. قال تعالى في آيات صلاة الخوف وأخذ الحذر أثناء الصلاة: ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَ أَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ [النساء: **103**].

وقال صلى الله عليه وسلم في العقرب بعد أن لدغه: " لعنة الله علي العقرب، لا يدع مصلياً ولا غير مصلي "، وفيه: " اقتلوه في الحل والحرم " [244].

واشترك العقرب أيضاً مع أعدائنا في اسم (الفسق) وهو وصف لإبليس أيضاً، قال الله تعالى: ﴿ إلا إبْلِيسَ كَانَ مِنْ الْجِنّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [الكهف: **50**].

وعلاقة أخرى، أنه يجوز قتل العقرب أثناء الصلاة كما يجوز الانشغال بقتل الأعداء أثناء الصلاة، لقوله تعالى: ﴿ فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً ﴾. قال ابن عمر فإن كان خوف وهو أشد من ذلك صلوا رجالاً قياماً علي أقدامهم أو ركباناً مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها [245]، وعند ابن ماجة أنه: " قتل صلى الله عليه وسلم عقرباً وهو يصلي " [246].

القرائن الحسية:

قال الإمام أحمد: عن أنس قال: استأذن ملك القطر أن يأتي النبي صلى الله عليه وسلم فأذن له، فقال لأم سلمة: " احفظي علينا الباب لا يدخل علينا

أحد، فجاء الحسين ابن علي رضي الله عنه فوثب حتى دخل، فجعل يصعد علي منكب النبي صلى الله عليه وسلم فقال الملك: أتحبه ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: نعم، فقال فإن أمتك تَقْتُلُهُ وإن شئت أَرَيْتُكَ المكان الذي يُقتَل فيه،

قال: فضرب بيده فأراه تراباً أحمر، فأخذت أم سلمة ذلك التراب فصرته في طرف ثوبها " قال: فكنا نسمع يقتل بكربلاء [247].

---

1 – أخرجه البخاري في ((جزاء الصيد)) باب: دخول الحرم ومكة بغير إحرام (7/4/ح 1846). ومسلم في ((الحج)) باب: جواز دخول مكة بغير إحرام (131/9/3. 132. النووي).

2 – أخرجه البخاري في ((جزاء الصيد)) باب: ما يقتل المحرم من الدواب (1829/24/4). ومسلم في ((الحج)) باب: ما يندب لمحرم وغيره قتله من الدواب في الحل والحرم (115/8. النووي).

3– أخرجه ابن ماجة في إقامة الصلاة والسنة بينها / باب ما جاء في قتل الحية والعقرب في الصلاة (395/1/ح 1246). من حديث عائشة.

1 – أخرجه البخاري في ((التفسير)) باب: (فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً... الآية) (46/18/ح 4535).

2 – أخرجه ابن ماجة في ((إقامة الصلاة والسنة فيها)) باب: ما جاء في قتل الحية والعقرب (1247/395/1)..

3 – أخرجه أحمد في مسنده (265/3) من حديث أنس.

قال رسول الله عليه وسلم: " لقد دخل عليَّ البيت مَلَك لم يدخل قلبها فقال لي ابنك هذا حسين مقتول، وإن شئت أريتك الأرض التي يُقتل بها، فأخرج تربة حمراء " [248].

عن ابن عباس قال: " رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام نصف النهار أشعث أغبر معه قارورة فيها دم فقلت بأبي وأمي يا رسول الله يا رسول الله ما هذا ؟ قال: هذا دم الحسين وأصحابه لم أزل التقطه منذ اليوم " [249].

وأخطر ما في هذه الأحاديث هو بقاء دم الحسين والطين الذي سيقبل به الدم كأثر محسوس وقرينة باقية دالة علي حدوث القتل كأمر غيبي. ولكن الأثر الذي لا يقل خطراً عن هذا هو أن يكون الَمَلك الموجود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويخبره بخبر الحسين هو ملك القطر.

وتفسير ذلك هو ما تضمنه حديث نزول القطر والفتن. الذي قال فيه

رسول الله صلى الله عليه وسلم [250].

ومن هذه الأحاديث تتأكد العلاقة المنهجية بين القطر والفتن.

وقد فسر الإمام ابن حجر العسقلاني هذه العلاقة بالتشابه بينهما من حيث إن كليهما يقع علي الأرض ثم يعمها وبذلك يجتمع القطر والفتن في الوقوع ثم العموم، ويلي هذا التفسير احتمالان آخران في تفسير العلاقة بين القطر والفتن:

الأول: هو أن يكون ملك القطر مختصاً بالقطر والفتن معاً ؛ لتكون وحدة المصدر والفعل أساساً في التوازن بينهما. باعتبار أن المطر رحمة وهي ما تقابل الفتنة باعتبارها عذاباً.

ويلي ذلك الاحتمال الثاني: وهو أن يكون للقطر ملك وللفتن ملك، ولكن ملك القطر مسئول عن ملك الفتن. مثل مسئولية ملك الحسنات عن ملك السيئات ونفوذ سلطانه عليه في كتابة أعمال العبد.

وفي ذلك تغليب للرحمة علي العذاب في قدر الله سبحانه وتعالي.

أما الملاحظة الأخيرة الواردة في مجموع الأحاديث فهي أن جبريل هو الذي كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ذكرت إحدى الروايات.

والجمع بين الأمرين هو احتمال وجودهما معاً. جبريل باعتبار مسئوليته عن الملائكة وملك القطر باعتبار مسئوليته عن الحدث.

تماماً مثل ما نزل جبريل ومعه ملك الجبال في ليلة الطائف. حيث قال جبريل: مرني أطبق عليهم الأَخْشَبين بعد أن عَّرفه أن معه ملك الجبال [251]. وهو في الصحيح عن عائشة بلفظ: " عن عائشة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحُد "، وفيه: " فإذا أنا

4- أخرجه أحمد في مسنده (294/6) من حديث أم سلمة.

1- ذكره ابن الأثير في ((أسدْ الغابة)) (23/2) عن حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمار عن ابن عباس.

2- تقد تخريجه.

1- أخرجه البخاري في ((بدء الخلق)) باب: إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه (3231/260/6). وطرفه في البخاري في ((التوحيد)) باب: (وكان الله سميعاً بصيراً) (7389/384/13). ومسلم في ((الجهاد والسير)) باب: ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى (393/6، 394 / 1975) من حديث عائشة.

بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك. وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم عليَّ ثم قال: يا محمد فقال إن شئت أطبق عليهم الأخشبين ".

تأييد الرؤية المباشرة:

وأهم الأحاديث المؤكدة لهذا العنصر هو حديث رؤية تميم الداري للدجال وهو الحديث المعروف باسم حديث الجساسة [252].

ونذكر هنا كيف أيد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الرؤية وفيه:

فصليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. فكنت في صف النساء التي تلي ظهور القوم. فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته، جلس علي المنبر وهو يضحك. فقال: " ليلزم كل إنسان مصلاه ". ثم قال: " أتدرون لِمَ

جمعتكم ؟ " قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: " إني، والله ! ما جمعتكم لرغبة ولا رهبة. ولكن جمعتكم ؛ لأن تميماً الداري كان رجلاً نصرانياً، فجاء فبايع وأسلم. وحدثني حديثاً وافق الذي كنت أحدثكم عن المسيح الدجال. حدثني ؛ أنه ركب في سفينة بحرية، مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام. فلعب بهم الموج شهراً في البحر. ثم أرفأوا إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس. فجلسوا في أقرب السفينة. فدخلوا الجزيرة، فلقيتهم دابة أهلب كثير الشعر. لا يدرون ما قُبُله من دُبُره من كثرة الشعر. فقالوا: ويلك ! ما أنت ؟ فقالت: أنا الجساسة. قالوا: وما الجساسة ؟ قالت: أيها القوم ! انطلقوا إلى هذا الرجل في الدير. فإنه إلى خبركم بالأشواق. قال: لما سمعت لنا رجلاً فرقنا منها أن تكون شيطانة. قال: فانطلقنا سراعاً. حتى دخلنا الدير. فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقاً. وأشده وثاقاً. مجموعة يداه إلى عنقه، ما بين ركبتيه إلى كعبيه، بالحديد. قلنا: ويلك ! ما أنت ؟ قال: قد قدرتم علي خبري. فأخبروني ما أنتم ؟ قالوا: نحن أناس من العرب. ركبنا في سفينة بحرية. فصادفنا البحر حين اغتلم. فلعب بنا الموج شهراً. ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه. فجلسنا في أقربها. فدخلنا الجزيرة فلقيتها دابة أهلب كثير الشعر. لا يدرى ما قبله من دبره من كثرة الشعر. فقلنا: ويلك ! ما أنت ؟ فقالت: أنا الجساسة. قلنا: وما الجساسة ؟ قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير. فإنه إلى خبركم بالأشواق. فأقبلنا إليك سراعاً. وفزعنا منها. ولم نأمن أن تكون شيطانة. فقال: أخبروني عن نخل بيسان. قلنا: عن أي شأنها تستخبر ؟ قال: أسألكم عن نخلها، هل يُثمر ؟ قلنا له: نعم. قال: أما إنه يوشك أن لا يثمر. قال: أخبروني عن بحيرة طبرية. قلنا. عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماء ؟ قالوا: هي كثيرة الماء. قال إن ماءها يوشك أن يذهب. قال: أخبروني عن عين زغر. قالوا: عن أي شأنها تستخبر ؟ قال: هل في العين ماء ؟ وهل يزرع أهلها بماء العين ؟ قلنا له: نعم هي كثيرة الماء، وأهلها يزرعون من مائها. قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل ؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب. قال: أقاتله العرب ؟ قلنا نعم. كيف صنع بهم ؟ فأخبرناه أنه قد ظهر علي من يليه من العرب وأطاعوه. قال لهم: قد كان ذلك ؟ قلنا: نعم. قال: أما إن ذلك خير لهم أن يطيعوه. وإني مخبركم عني. إني أنا المسيح. وإني أوشك أن يُؤذن لي في الخروج. فأخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في

---

1 - تقدم تخريجه.

أربعين ليلة. غير مكة وطيبة، فهما محرمتان عليَّ كلتيهما. كلما أردت أن أدخل واحدة منها استقبلني مَلَك بيده السيف صلتاً يصدني عنها. وأن علي كل نقب ملائكة يحرسونها ". قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وطعن بمخصرته في المنبر: " هذه طيبة. هذه طيبة. هذه طيبة " يعني المدينة: " ألا هل كنت حدثتكم ذلك ؟ " فقال الناس: نعم. " فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة. ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن. لا بل من قبل المشرق. ما هو من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق، ما هومن قبل المشرق وأومأ بيده إلى المشرق " قالت: فحفظت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم [253]

وفي إطار تأييد الرؤية المباشرة:

ذكر البخاري في صحيحه – تعليقاً – أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم رأيت السد فقال: كيف رأيته ؟ قال: مثل البرد المحبر. قال: رأيته [254].

وقد تكررت رؤية السد في خلافه عمر بن الخطاب عندما بعث عمر بن عبد الرحمن بن ربيعة.

يقول ابن كثير في البداية والنهاية: ثم أقبل عبد الرحمن بن ربيعة علي الرسول الذي ذهب إلى السد وكان قد بعث رسلاً إلى عدة بلاد ويقصد ابن كثير أن عبد الرحمن أقبل علي الرسول الذي بعثه إلى ملك البلاد التي فيها السد. فقال ما حال هذا الردم ؟ يعني ما صفته فأشار إلى ثوب في زرقة وحمرة فقال: مثل هذا. فقال رجل لعبد الرحمن: صدق، ولقد نفذوا الرأي فقال: أجل وصف صفه هذا الحديد والصفر. قال تعالى: ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ [الكهف:96].

❃ المعاينة والوصف: مكان ظهور الدابة:

وفيه هذا الحديث الذي أخرجه ابن ماجة عن بريدة رضي الله عنه قال: ذهب بي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى موضع بالبادية قريب من مكة بأرض يابسة حولها رمل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " تخرج الدابة من هذا الموضع فإذا فتر في سبخ " [255].

❃ مكان وقوف الدجال قرب المدينة:

ينزل الدجال علي بعض السباخ خارج المدينة من قِبل الشام من جهة الحرة، ففي الصحيح عن أبي سعيد رضى الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً حديثاً طويلاً عن الدجال فكان فيما يحدثنا به أنه قال: يأتي الدجال وهو مُحَرَّمٌ عليه أن يدخل نقاب المدينة فينزل بعض السباخ التي تلي المدينة.. [256] الحديث

قال الحافظ: والسباخ: هي الأرض الرملة التي لا تنبت لملوحتها وهذه السبخة خارج المدينة من غير جهة الحرة. وقوله (التي تلي المدينة) أي من قبل الشام. أ. هـ.

1- أخرجه مسلم في ((الفتن)) / باب: قصة الجساسة (304/9/ح 2942).

2- ذكره الحافظ في ((الفتح)) (445/6). وقال رواه الطبراني من طريق سعيد بن بشير عن قتادة عن رجلين عن أبي بكرة: أن رجلاً آتي النبي صلى الله عليه وسلم، فذكر نحوه.

1- تقدم تخريجه.

2 - أخرجه البخاري في ((الفتن وأشراط الساعة)) باب: لا يدخل الدجال المدينة (13 /109 / ح 7132) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه. تقدم في علاقة الدجال بالملح والأرض السبخة.

❃ التمثيل والتشبيه:

وفيه خرج النبي صلى الله عليه وسلم وعلي يمينه أبي بكر وعلي شماله عمر فقال: " وهكذا نُبعث يوم القيامة "[257]الترمذي في نوادر الأصول.

ومنه تشبيه عيسي بن مريم بعروة ابن مسعود في الحديث الذي قال فيه

رسول الله صلى الله عليه وسلم: " فيبعث الله تعالي عيسي ابن مريم عليه السلام كأنه عروة بن مسعود فيطلبه ويهلكه " [258].

ومنه تشبيه الدجال بقطن بن عبد العزى. كما في الحديث: " وأما مسيح الضلالة فأنه أعور العين أجلى الجبهة عريض النحر فيه دفاً كأنه قطن بن عبد

العزى، قال: يا رسول الله هل يضربي شبهه ؟ قال: لا، أنت امرؤ مسلم وهو رجل كافر " [259].

ومن ذلك ما تقدم من تشبيه الساعة بالحامل المتم [260].

❃ التوازن بين الفزع والتوكل:

ومن أحاديث التوازن بين الفزع والتوكل ما جاء في علامة الدجال.

ومنها حديث عائشة رضى الله عنها إذ قالت دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكى فقال: ما يبكيك ؟ قلت: يا رسول الله ذكرت الدجال فبكيت. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن يخرج وأنا حي كفيتكموه وإن يخرج الدجال بعدي فإن ربكم عز وجل ليس بأعور. إنه يخرج في يهودية أصبهان " [261].

كذلك حديث أم سلمة قالت: ذكرت المسيح الدجال فلم يأتني النوم فلما أصبحت غدوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال: " لا تفعلي فإنه إن يخرج وأنا فيكم يكفيكم الله بي. وإن يخرج بعد أن أموت يكفيكموه بالصالحين ثم قام فذكر الدجال " فقال: " ما من نبي إلا قد حذر أمته. وأنا أحذركموه أنه أعور وأن الله ليس بأعور. إلا أن المسيح الدجال كأنه عين

طافية " [262].

---

3 – أخرجه الترمذي في ((المناقب)) باب: مناقب أبي بكر وعمر رضى الله عنهما (5/ 612 / 3669).وأبن ماجة في ((المقدمة)) (1/ 38 / ح 99). من حديث ابن عمر رضي الله عنه. وأخرجه الطبراني في=

=((الأوسط)) (8 / 156، 157 / ح 8258) من حديث أبي هريرة وقال لم يرو هذا الحديث عن إبراهيم بن سعد إلا خالد بن يزيد، تفرد به، علي بن حرب. وذكره الهيثمي في ((المجمع)) (9 / 53) وقال: فيه خالد بن يزيد العمري وهو كذاب.

1– أخرجه مسلم في ((الفتن)) باب: خروج الدجال ومكثه في الأرض (9 / 301 / ح 2940) من حديث عبد الله بن عمرو. وقد تقدم.

2 – تقدم تخريجه. وهو من حديث النواس بن سمعان رضى الله عنه الطويل.

3 – تقدم تخريجه.

1 – أخرجه أحمد في مسنده (75/6) من حديث عائشة رضي الله عنها.

2 – أخرجه الطبراني في الكبير (23 / 268 / ح 569) قال الهيثمي في المجمع (7 / 351) قال: رجاله ثقات إلا أن شيخ الطبراني أحمد أبن محمد بن نافع الطحان لم أعرفه. وقال: أبن كثير في الفتن والملاحم (ص: 130). قال الذهبي: أسناده قوي.

وكذلك حديث أسماء بنت يزيد الأنصارية قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي فذكر الدجال. قالت ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته ثم رجع والقوم في اهتمام وغمّ مما حدثهم.

قالت: فأخذ بحلقتي الباب وقال: مه مه أسماء، قالت: قلت يا رسول الله خلعت أفئدتنا بذِكر الدجال قال: " فإن يخرج وأنا حي فأنا حجيجه وإلا فإن ربي خليفتي على كل مؤمن "[263]. رواه أحمد.

وفي رواية مسلم: عن المغيرة بن شعبة قال: " ما سأل أحد النبي صلى الله عليه وسلم عن الدجال أكثر ما سألته، قال: وما سؤالك، قلت: إنهم يقولون إن معه جبالاً من خبز ولحم، ونهراً من ماء ؟ قال: هو أهون على الله من ذلك ".

قال عياض: معناه وهو أهون من أن يجعل ما يخلقه على يديه مضلاً للمؤمنين، ومشككاً لقلوب الموقنين.

بل ليزداد الذين أمنوا إيماناً، ويرتاب الذين في قلوبهم مرض، وهو مثل قول الذي يقتله: ما كنت أشد بصيرة مني، لا أن قوله هو أهون عليه من ذلك، إنه لا شيء من ذلك معه.

ولعلنا نلاحظ أن إجابة النبي صلى الله عليه وسلم للمغيرة: " هو أهون

على الله من ذلك "، كانت لما رأى النبي – صلى الله عليه وسلم – المغيرة قلق من الدجال بصورة غير عادية، بدليل أن المغيرة قال ما سأل أحد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدجال أكثر مما سألته.

– ومن أحاديث الفزع. حديث الفزع من الترك:

روى الأمام أحمد بن حنبل في مسنده عن بريده قال: كنت جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم فسمعت النبي يقول: " إن أمتي ليسوقها قوم عراض الوجه صغار الأعين كأن وجههم الجحف ثلاث مرات حتى يلحقوا بجزيرة العرب، أما السياقة الأولى فينجوا من هرب منهم قال: وكان بريدة لا يفارقه بعيران أو ثلاثة ومتاع السفر والأسقية بعد ذلك للهرب مما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاء من الترك "[264].

وفي التوازنات بين الفزع التوكل أيضا هذا الحديث:

" كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم وحنا جبهته ينتظر متى يؤمر أن ينفخ، قيل: قلنا: يا رسول الله ما نقول يومئذ ؟ قال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل وعليه توكلنا "[265].

والآن وبعد تحقيق الفهم واليقين يأتي الأمر الثالث والخطير وهو قواعد إسقاط العلامة على الواقع.

---

3 – أخرجه أحمد في مسنده (455/6) من حديث أسماء بنت يزيد وتقدم.

1 – أخرجه أحمد في مسنده (5/ 348) وأبو داود في ((الفتن)) باب: في قتال الترك (4 /110 / ح 4305) من حديث بريدة عن أبه رضي الله عنه.

1 – أخرجه أحمد في مسنده (374/4) من حديث زيد بن أرقم. وأخرجه أحمد في ((مسنده)) (3 / 7) والترمذي في ((الفتن)) / باب: ما جاء في شأن الصور (4 / 620 / ح 2431) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

إسقاط العلامة على الواقع:

والتوازن بين العلم بالعلامات والواقع والخلل في التوازن يتمثل في انصراف العقل بالعلامات عن الواقع.

والخلل فيه أيضاً الانصراف عن علم العلامات بالواقع.

ومعالجة هذا الخلل هو:

أحكام إسقاط العلامة على الواقع:

ومن هذه الأحكام الحذر من التقييم المادي للعلامة ولنضرب لذلك الحذر مثالاًَ يوضحه:

فمن علامات ظهور الدجال (جفاف بحيرة طبرية) فإذا نظرنا إلى بحيرة طبرية الآن وجدنها تكاد تجف فننظر إلى العلامة نظرة ماديه فنقيس الباقي من الزمن اللازم لجفاف البحيرة إلى الفترة الزمنية التي بدأ فيها جفاف البحيرة أصلاً. وإذا نظرنا هذه النظرة نقول بأن المتبقي من الزمن اللازم لجفاف البحيرة قليل جداً ؛ لان الباقي من مياه البحيرة قليل جداً.

وهذا خطأ لان الباقي من البحيرة هو المانع من تحقيق علامة الجفاف وهو أمر قدري غير مرهون بالمعدل الزمني الذي بدأ فيه جفاف البحيرة. بل قد تمتلئ البحيرة بعد أن تكاد تجف.

ومن ناحية أخرى فإن الحديث نص على أن علامة ظهور الدجال هو جفاف بحيرة طبرية. ولم يقل النص مجرد جفاف بحيرة طبرية.. ولكن أن يظهر الدجال وقد جفت بحيرة طبرية..

وبذلك لم يتحدد وقت جفاف البحيرة.ووقت ما بعد جفاف البحيرة الذي يظهر فيه الدجال.

وأخطر علامة تختل فيها أحكام إسقاط العلامات على الواقع (علامة المهدي)

والسبب في ذلك هو كثرة توافر الشروط الشخصية المحددة في صفاته. مثل أجلى الجبهة. وأقنى الأنف. ومثل الرؤى التي يراها الناس لأحد الأشخاص توافق الاسم. أو ملء الدنيا جوراً.

فهناك صفات يمكن تأويلها مثل أن تمتلئ الدنيا جوراً.

مما يجعل أهم أحكام إسقاط العلامات علي الواقع هو رد العلامة إلى المحكم من شروطها.. فمن شروط علامة المهدي.. الجيش الذي يخسف به في بيداء المدينة. هذا جيش.. وسيخسف به.. ولن يبقى منه أحد إلا من يخبر عنه. وهو أمر يستحيل حدوثه بصورة عارضة. ويستحيل خفاؤه. ويستحيل تأويله أو خفاء معناه.

ومن هذه الأحكام التوازن في توقُّع حدوث العلامة.

فإن تحقُّق اليقين ينشأ معه توقع زائد للحدوث، بحيث يصبح هذا التوقع الزائد مشكلة في ذاتها ولقد عبرت الأحاديث عن هذه المشكلة بصورة كاملة. منها حديث جابر قال: " هاجمت ريح حمراء بالكوفة، فجاء رجل ليس له هجير: ألا يا عبد الله بن مسعود جاءت الساعة، فقام وكان متكئاً فقال: إن الساعة لا تقوم حتى لا يقسم ميراث ولا يفرح بغنيمة " [266].

الباب الخامس

التصور المنهجي القرآني

---

1 – أخرجه مسلم في ((الفتن)) باب: إقبال الروم في كثرة القتل عند خروج الدجال (9 / 251). وأخرجه أحمد في مسنده (1 / 384) (3643)

- سورة الدخان والدجال
- سورة الأنبياء
- ويأجوج ومأجوج
- سورة النمل والدابة

أولاً: الأساس القرآني العام للعلامات:

ولما كان القرآن كتاب الإيمان أي ليؤمن الناس، كان لابد أن يكون للعلامات باعتبارها أفعال الله ليؤمن الناس أيضاً أن يكون لها حيز ومساحة في هذا الكتاب..

وكان من الضروري أن يكون لأهمية قضية العلامات تصور قرآني واسع ولكننا فهمنا أن التصور القرآني للعلامات لم يتجاوز حدود التطورات الكونية الأخيرة والتي تحددت كالمقدمة بين يدي الساعة، مثل السماء والأرض والنجوم والجبال والشمس والقمر. وكانت هذه المحدودية ضمن ما فهمنا من أخطاء.

والدليل علي ذلك هو المساحة القرآنية العظيمة التي ناقشت بصورة رائعة علامة الدجال ويأجوج ومأجوج وعيسي والدابة ابتداءً. ثم تبعها التطورات الكونية الأخيرة.

ولعل اكتشاف هذه المساحة يعود إلى علم المناسبة: (علم مناسبة الآية

بالآية..) حيث أنشأت هذه المناسبة في هذا العلم موضوعية كاملة لكل العلامات المذكورة، والسابقة علي التطورات الكونية المشهورة. ولعل الخطأ في فهم العلامات في القرآن كان راجعاً إلى التوقع الخاطئ بأن تملأ ألفاظ الدجال ويأجوج ومأجوج والدابة.. آيات القرآن.

ولكن الدخول في التصور القرآني للعلامات سيكون هو الحكم علي ادعاء المساحة الواسعة والأهمية العظمى للعلامات في القرآن. كما أنه سيكون الدليل علي الفهم الخاطئ الذي ظل يبحث به أصحابه عن ألفاظ بحروفها ولم يجدوها.

وقبل طرح التصور هناك كلمة مهمة، وهى أن استقصاء التصور أكبر من الطرح السريع للقضية في هذا الكتاب ؛ لذا سنعطي مؤشراً لأبعاد القضية. من خلال أمثلة من سور كاملة.. مثل:

سورة الدخان.. والدجال

سورة الأنبياء.. ويأجوج ومأجوج

سورة النمل.. والدابة

ثانياً: السور القرآنية المحددة:

أولاً: سورة الدخان والدجال

﴿ حم (1) والْكِتَابِ الْمبِين.....﴾

ولما كانت مقدمات ابن كثير للسور تحمل مضمونها العام ومعناها الجوهري كانت المناسبة بين الدجال وسورة الدخان هي مقدمة ابن كثير للسورة.

إن هذا الكتاب المبين هو المواجهة الكاملة والحرز التام والعصمة النهائية من الدجال.

وصفة (المبين) التي بها تكون الإبانة والوضوح والشهادة. ليكون الحسم واليقين والاستقامة.

ولذلك كانت فواتح الكهف عصمة من الدجال. كما قال صلى الله عليه وسلم: " من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال " [267].

ولذلك كانت صفة الكتاب المنزل في سورة الكهف هي: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ [الكهف: 1]، ولم يجعل له

(عوجاً) هي الأخرى أنسب صفات الكتاب المناسبة لمواجهة الدجال بخداعه والتوائه وغرابته.

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ..... ﴾

إن ذكر ((الليلة المباركة)) بهذه الصفة يعني المعني الأول للتقابل مع الدجال لأن البركة تمام النفع والدجال لا نفع فيه.

كما أن ذكر (الليلة المباركة) التي يفرق فيها كل أمر حكيم ضرورة عقَدِية لتصور أعمال الدجال تصوراً صحيحاً.

فالدجال سيكون في فتنته الإحياء والإماتة.

فكان لابد من إثبات أن الإحياء والإماتة علي وجه الحقيقة هي لله.

وإن كان لغيره ظاهراً فهو بإذنه فتنة وابتلاءً.

مثل عيسي ابن مريم الذي كان يحي الموتى بإذن الله.

ولابد أن نؤمن بالإحكام في أقدار الله ؛ حتى لا نتساءل عن الأجل المكتوب في هؤلاء الذين سيميتهم الدجال ثم يحييهم.

فالله يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب.

ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ليلة القدر والدجال في حديث واحد فقال: " خرجت إليكم وقد تبينت ليلة القدر ومسيح الضلالة، فكان يلوح بين رجلين بسدة المسجد فأتيتهما لا حجز بينهما فأنسيتهما وأما ليلة القدر فالتمسوها في العشر الأواخر وتراً وأما مسيح الضلالة فإنه أعور العين أجلى الجبهة عريض النحر فيه دفا كأنه قطن بن عبد العزى قال: يا رسول الله، هل يضرني شبهه ؟ قال: لا، أنت امرؤ مسلم وهو رجل كافر " [268]

وقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم العلة من نسيانه بيان الدجال بسبب الملاحاة بين رجلين عندما بين: " أن الدجال يخرج في بُغض من الناس وخفة من الدين وسوء ذات البين ". وذلك في الحديث الذي رواه الحاكم [269].

إن الإبانة والاستقامة في الكتاب تتطلب في مواجهة الدجال إثبات المقتضى الواقعي للإبانة والاستقامة. وهي الفرقان، في الواقع بالفرقان في القدر الإلهي المحكم والفرقان في الواقع يعني الرسالة والنبوة التي تحقق في حياة الناس هذا الفرقان.

ولما كان الفرقان يتنافى مع الدجال وأفعاله، كان من مقتضيات الرسالة وواجب كل رسول أن يحذر أمته من هذه العلامة. لأن هذا التحذير أهم مقتضيات هذا الفرقان.

---

1 - رواه مسلم وأحمد والنسائي، وتقدم.

1 - تقدم تخريجه.

1 - رواه الحاكم في المستدرك 4 / 529 0

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: " ما من نبي إلا وأنذر أمته الدجال وأنا أزيدكم فيه تحذيراً ".(رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ 6 ﴾ [الدخان: 6].

فالإنذار رحمة من الله، لأنه نجاة من الفتنة ولكنه رحمة من ﴿ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ المحيط بغيب الدجال، القادر وحده علي إنزال الكتاب المبين، القادر وحده علي تحقيق الفرقان: ﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إنْ كُنْتَمْ مُوقِنِينَ﴾[الدخان:7].

إن الإيمان بأن الله رب السموات والأرض هو أهم حقائق الاعتقاد التي تبرز أمام أعمال الدجال ؛ لأن حركة الدجال وآثاره في الوجود الكوني لا تخرج عن حقيقة الربوبية الكاملة لله عز وجل في السموات والأرض.

﴿لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ الأَوَّلِينَ ﴾[الدخان: 8].

إن الآية التي تثبت لله عز وجل قد جعل القدرة علي الإحياء والإماتة – باستمرار – إنما تحدد فارقاً جوهرياً بين قدرة الله وفتنة الدجال في هذا الأمر.

لأن الله عز وجل قد جعل عجز الدجال في فتنة الإحياء محدوداً بمعني الفتنة ؛ لأن الدجال يعجز عن قتل الشاب مرة ثانية كما في جاء الحديث، فيقول: أنت المسيح الكذاب، قال فيؤمر به فيؤمر بالمنشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه قال: ثم يمشي الدجال بين القطعتين ثم يقول له: قُمْ فيستوي قائماً قال: ثم يقول له أتؤمن بي ؟ فيقول: ما ازددت فيك إلا بصيرة، قال: ثم يقول: يا أيها الناس إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس قال: فيأخذه الدجال ليذبحه فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاساً فلا يستطيع إليه سبيلاً قال: فيأخذ بيديه ورجليه فيقذف به فيحسب الناس إنما قذفه إلى النار وإنما ألقى به في الجنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا: " هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين " [270].

أما قدرة الله عز وجل فهي القدرة الدائمة: ﴿ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [الدخان: 8].

﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ الأَوَّلِينَ ﴾، إن ربوبية الله عز وجل لهؤلاء الناس ولآبائهم الأولين هي التي تطمئن علي المصير وليس الشياطين المتمثلين في صورة الآباء..

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ [الدخان: 9].

وهذا هو المدخل إلى الفتنة.. الخروج من اليقين بالشك.

فعندما يكون الشك تكون الفتنة.. أما مواجهة الفتنة فهي كما كانت من الشاب الذي سيقتله الدجال..

يقتله بمنشار يشقه نصفين..

يمر بينهما..

يدعوه فيقوم..

ويقول: له أنا ربك.فيقول: أنت الدجال ما ازددت فيك إلا بصيرة.

اليقين أو الفتنة لا ثالث لهما.

---

1 – أخرجه البخاري في ((الفتن)) / باب: لا يدخل الدجال المدينة (7135/109/13)، ومسلم في ((الفتن)) / باب: ذكر الدجال (18/ 17. النووي).

﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ 10 يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ 11 رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ 12 أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ 13 ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ 14 إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ 15 يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ 16 ﴾ [الدخان].

إن موضوع الآيات ذكر الدخان.

وقد سبق ذكر المقارنة بين الدجال والدخان وتراجع علامة الدجال.

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ [الدخان: 17].

يطلب رد بني إسرائيل إليه، فالإنسان أمانة، وهو يطلب أداء الأمانة إليه.

﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [الدخان: 18].

وهنا تكون سورة الدخان أُنزلت لتناقش قضية الأمانة في اكمل حدودها أمانة الشعوب.

بين الخونة المؤتمنين مثل فرعون.

وبين الأمين الحقيقي مثل موسى.

والأمانة هنا هم عباد الله.

ولم يكن ائتمان فرعون وتخوين موسى هو الواقع الوحيد في واقع فرعون فلقد كان واقع فرعون في تناقضه إجمالاً أقرب شَبَهاً بواقع الدجال حتى قال فرعون في موسى: ﴿ إِنِّيَ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الفَسَادَ ﴾ وقال في نفسه: ﴿ ومَا أَهْدِيكُمْ إلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾.

﴿ وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ [الدخان: 19].

والعلو هنا هو المناسبة بين فرعون والدجال ؛ لأن معنى الدخان هو العلو بالشر وقد ثبت هذا الوصف على فرعون فقال سبحانه: ﴿ وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [الدخان: 19].

ولما كان من الضروري التفريق بين آيات الله وأفعال الدجال كان من وصف آيات الله بأنها سلطان مبين ليتبين الفرق بين أفعال الدجال القائمة على الفتنة والخداع والسحر وأفعال الله الحقيقية القوية الواضحة الهادية.

﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ 20 وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ 21 فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ 22 ﴾ [الدخان].

وأخيراً ينطلق موسى بالحكم عليهم ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴾.

ويصدق الله على حكم موسى ويستجيب له بعد أن دعا عليهم.

هكذا يكون التعامل بين الله والعباد.

لا يكون الحكم إلا بعد الرسالة واللين والحجة.

وهذه الحقيقة هي التي تصلح في الواقع بداية للمقارنة بين أفعال الله عز وجل وأفعال الدجال.

﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ 23 وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ 24 ﴾ [الدخان: 23،24].

وهنا نجد أنفسنا أمام فعل من أفعال الله عز وجل..

أن يصل موسى إلى البحر، فيأمره ربه أن يضرب بعصاه البحر فينشق، آية حقيقية ليست سحراً مثلما ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ واسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ [الأعراف: 116]، ولكنه كان انشقاقاً فعلياً للبحر حتى قال سبحانه وتعالى ﴿ واتْرُكِ البَحْرَ رَهْواً ﴾ [الدخان: 24]، أي ساكناً.

ثم ننتقل إلى مقارنة أخرى حسب ترتيب الآيات بين فعل الله وفعل الدجال.

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ 25 وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ 26 وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ 27 كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ 28 ﴾[الدخان:25– 28].

وقد تقرر أن حقيقة الفعل الإلهي تؤكد ولاية الله لجميع الخلائق.

وفعل الدجال ينفي علاقته بهذا المقام.

فالذي لا يؤمن بالدجال يجوع.

ولكن الله عز وجل يرزق من يكفر به، ودليل ذلك هو رزق الله لفرعون وهو أشد البشر كفراً حتى بلغ ادعاء الألوهية..

مع ذلك بلغ رزق الله..ما تصفه الآية:﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ 25 وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ 26 وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ 27 ﴾.

[الدخان: 25– 27]. هم الذين تركوها ولم يمنعها الله عنهم.

وحتى عندما يتقرر حكم الله بحرمانهم منها، فإنها تورث إلى قوم آخرين، لأنها رزق الله، ورزق الله باق: ﴿كَذَلِكَ وأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ ﴾ [الدخان: 18].

وحتى عندما يطلب الإنسان الجوع فإن الله عز وجل بولايته يمنع عنه هذا الطلب.. ومثل ذلك قوم تُبّع الذين سيأتي ذكرهم في الآية 37.

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ومَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾[الدخان: 29]. إن طبيعة الكفر هي العدم.

وليس الكفر أصل كوني.

والدجال هو الدليل الأول علي طبيعة الكفر. وذلك عندما يضربه عيسى ابن مريم فيذوب كما يذوب الملح كأنه لم يكن.. يذوب ولا يبقى له وجود ولا أثر. وتعبر سورة الدخان عن هذه الحقيقة بقوله عز وجل: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ومَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان: 29].

﴿ وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الدخان: 32].

قال المفسرون في زمانهم، وذلك لأن تاريخ بني إسرائيل بعد زمنهم كان لا يتناسب مع مقتضى اختيار الله لهم، ولكن التصور المنهجي للعلامات يُثبت دوراً استثنائياً لبني إسرائيل في التحقيق المطلق لاختيار الله لهم علي العالمين، وهو أن يكون فتح القسطنطينية علي يد سبعين ألفاً منهم وأن فتحهم للقسطنطينية سيكون بالتهليل والتكبير.

ولعلنا نلاحظ أن عدد الذين سيفتحون القسطنطينية من بني إسحاق هم نفس عدد الذين سيتبعون الدجال من اليهود.

إنه الدليل النهائي على اختيار الله لبني إسرائيل على علم على العالمين.

على علم يبلغ هذه المساواة العددية الدقيقة بين عدد أتباع الدجال وعدد أتباع المهدي (سبعون ألفاً) يفتحون القسطنطينية بالتهليل والتكبير والذين من أجلهم ستكون الملحمة حيث سيطلبهم الروم وهم من بني عيص أخي يعقوب (إسرائيل) فيرفض المسلمون تسليمهم لهم ويقولون هم إخواننا لا نسلمهم وتكون الملحمة..

وهذا علم الله.

﴿ وَآتَيْنَاهُمْ مِنْ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُبِينٌ ﴾ [الدخان: 33].

إن الآيات التي تناقش موقف بني إسرائيل في سورة الدخان إنما تناقشها من منظور ثابت وهو بني إسرائيل هم أولى الناس بالكفر بالدجال ؛ لأنهم هم الناجون من فرعون قرين الدجال بالتوافق والصفات.

ولأنهم أعلم الناس بحقيقة أفعال الله.. من خلال آياته.. ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ مِنْ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُبِينٌ ﴾ [الدخان: 33].

﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ 32 وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاء مُّبِينٌ 33 إِنَّ هَؤُلَاء لَيَقُولُونَ 34 إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ 35 فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ 36 ﴾ [الدخان].

ولن يأتي الآباء ؛ لأن الفاصل بين الغيب والشهادة لا يمكن تجاوزه، هذا

حكم الله.

أما فعل الدجال بتمثيل الشياطين فلعب وكذب وخداع، لا يقبله الله.

إن المناسبة بين إثبات الوعد الحق هنا في السورة هي وعد الدجال بأن يموت العبد يهودياً، أو نصرانياً.

ومن هنا يجعل الدجال الشياطين تتمثل للرجل في صورة أبيه وأجداده ويقولون له: يا بني لقد عاينَّا الأمر ووجدنا أن اليهودية حق أو النصرانية حق.

وكما كان الكتاب مبيناً كان الرسول مبيناً ؛ ليتضاعف معنى الإبانة لأنها الصفة اللازمة لمواجهة الدجال ويزيد الرسول صلى الله عليه وسلم الأمر بياناً. فكان كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قتلى بدر تحقيقاً للإبانة.

وذلك كما جاء في الآية: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى ﴾

[الدخان: 16].

فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد رحلها، ثم مشي واتبعه أصحابه، وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على شفة الركي فجعل ينادي بأسمائهم وأسماء آبائهم (وقد جيفوا): " يا أبا جهل ابن هشام ويا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا وليد بن عتبة "، أيسركم أنكم أطعتم الله

ورسوله ؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاًّ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ قال: فسمع عمر قول النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ! ما تكلم من أجساد لا أرواح لها، وهل يسمعون ؟ بقول الله عز وجل: ﴿ إنك لا تُسمع الموتى ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "

والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم والله إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنت أقول لهم لهو الحق ". وفي رواية: " أنهم الآن ليسمعون غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا عليَّ شيئاً. قال قتادة: أحياهم الله (له) حتى أسمعهم قوله، توبيخاً وتصغيراً، ونقمة، وحسرة وندماً " [271].

فيتقابل الوعد الحق من الله سبحانه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم، ويتحقق الكشف الحق بين الغيب والشهادة مع الوعد الباطل الكاذب من الدجال في صورة الشياطين بأن يموتوا على غير الإسلام كما في الحديث.

﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ **37** ﴾ [الدخان: **37**].

ومن قوم تُبَّع قوم سبأ الذين طلبوا المباعدة بين أسفارهم.. وإن الله عز وجل لم يمنع رزقه عنهم بعد عذابهم فقال سبحانه: ﴿ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾.

حيث إن تبع من ولد قحطان وهم العرق المقابل لعدنان، وعدنان هم أصل النبي صلى الله عليه وسلم ومعدنه، ومنهم المهدي وهم من ولد إسماعيل أشد أمة النبي صلى الله عليه وسلم على الدجال كما تقدم.

إن إرادة الله بجعْل الأمر في عدنان أخي قحطان، الذين سيكونون مع المهدي يُذكِّر بالمساواة العددية بين بني إسحاق وبين بني إسرائيل الذين سيكونون مع الدجال، وكلا المثلين يؤكد حكمة الله البالغة في الأعراق المتقابلة، وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن بقاء الأمر في عدنان سيظل حتى يعود إلى بني قحطان في أخر الزمان.

﴿ وَآتَيْنَاهُمْ مِنْ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُبِينٌ ﴾[الدخان: **33**].

أي الحجج والبراهين وخوارق العادات.. هكذا جاء تفسير الآية.

وكلها تؤكد الفارق بين أفعال الله وأفعال الدجال السحرية الخداعية.

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الدخان: **58**].

لسانك العربي.. الذي أوضح سورة كاملة من خلال معني كلمة واحدة هو اسم السورة (الدخان).

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ **38** مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ **39** ﴾ [الدخان: **38 – 39**].

إن أهم مقتضيات التصور الإسلامي الصحيح لإدراك فتنة الدجال هو أن نعلم الفارق الأكبر بين أفعال الدجال وحقيقة الفعل الإلهي، وأكبر فارق هو الذي بين المخلوق والخالق.

ومن هنا سبق ذِكْر أصول الفعل الإلهي مع ذكر علامات الساعة كلها في ترتيب البحث ولكن سورة الدخان تناقش هذا الفارق بصورة مباشرة وكاملة..

فأمر الله محكم مكتوب في كتاب عنده.

---

1 - أخرجه البخاري (7 / 240 – 241)، واللفظ له ومسلم (8 / 164). وانظر ((أحكام الجنائز)) ص 134، 122 للألباني.

وكل ما علمه الله يشاؤه.

وكل ما يشاؤه الله يقضيه.

وكل ما قضاه الله يقدره.

وكل ما يقدره الله يفعله.

لا يخرج شيء عن هذه الحدود..

أفعال الله كلها حق.. خلق، السموات والأرض، الدنيا والآخرة، الجنة والنار، لا لعب لا عبث لا سدى ولا لهو ولا خداع.

﴿ إِنَّ يَوْمَ الفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الدخان: 40].

إن تسميه يوم القيامة بيوم الفصل يناسب محاولة معرفة الكفار لمصيرهم من آبائهم..

فالقيامة فصل بين الغيب والشهادة..

ولا يمكن قبلها معرفة المصائر..

وحتى عندما يتعرف الأبناء على الآباء، فلن ينفع أحدهم الأخر..

﴿ يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئاً ولا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [الدخان: 41].

ولذلك كان ختام السورة عرض للنار والجنة، نار الله وجنته سبحانه، وليست نار الدجال ولا جنته. ولكن النار والجنة في سورة الدخان جاء ذكرهما باعتبارهما جزاءً لمن أتبع الدجال ولمن كفر به.

فالذي أتبع الدجال اتبعه من أجل الطعام والشراب.

ولذا كان في النار طعام وشراب.

﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ 43 طَعَامُ الْأَثِيمِ 44 كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ 45 كَغَلْيِ الْحَمِيمِ 46 ﴾ [الدخان].

فالذي سيتبع الدجال سيتبعه من أجل الوجهة والمكانة المرموقة.

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ ﴾ [الدخان: 49].

مثل السبعين ألف يهودي الذين يلبَسون الطيالس والتيجان.

والذين كفرو بالدجال أصبحوا مهانين فكان الجزاء المقام الكريم

﴿ إِنَّ الْمتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ أصبحوا جياعاً عطاشاً خائفين فكان الجزاء ﴿ فِي جَنَّاتٍ وعُيُونٍ ﴾

أصبحوا عراة فكان الجزاء

﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾.

فالنار هي النار.. شجرة الزقوم.. والُمهْل الذي يغلي في البطون، كغلي الحميم.. سواء الجحيم.. وعذاب الجحيم.

والجنة هي الجنة.. المقام الكريم.. الجنات والعيون.. السندس والإستبرق.. الحور العين.. الفاكهة..

الجنة حق. والنار حق..

لا موت في الجنة.. إلا الموتة التي ملتها العبد من قبل.

وهذه الآية تقرر نفي الخداع في أفعال الله..

فالآية تقول: ﴿ ووقاهم عذاب الجحيم.. ﴾

وبعد كل هذا الوصف يجب أن نفهم ذلك ابتداءً..

ولكنها المقارنة بين أفعال الله الحقيقية وخداع الدجال.

فالجنة جنة.. ليس فيها عذاب أليم.

والنار.. وإن كان فيها شجر زَقُّوم.

وإن كان فيها طعام فهم طعام الأثيم.

وإن كان فيها تكريم فهو السخرية.

ثانياً: سورة الأنبياء ويأجوج ومأجوج

إن علامة يأجوج ومأجوج علامة تحتاج إلى تحديد تصوري كامل وسورة الأنبياء تمثل إطاراً عاماً لهذا التصور.

وهذه السورة لا تمثل هذا الإطار لمجرد ذكر العلامة فيها، ولكن لأن جميع آياتها لا تخرج عن إيضاح جانب أساسي من جوانب هذه العلامة وقد جاء في صحيح البخاري ما يؤكد مضمون وجوهر العلاقة بين السورة والعلامة.

وذلك عندما ذكر في كتاب الأنبياء باب قصة يأجوج ومأجوج.

ثم جاء في فتح الباري شرح صحيح البخاري، ما يظهر مضمون العلاقة بقوله والغرض منه هنا ذكر يأجوج ومأجوج الإشارة إلى كثرتهم وأن هذه الأمة بالنسبة إليهم نحو عشر العشر وإنهم من ذرية آدم رداً على من قال خلاف ذلك.

وقد زادت العلاقة وضوحاً عندما ذكر ابن حجر قصة لقاء ذي القرنين بإبراهيم وإسماعيل وهما يحفران زمزم.

إنه لقاء أبي الأنبياء وأصحاب الأمة المسلمة الواحدة [272].

ومعه إسماعيل أصل الامتداد البشري إلى أمة النبي صلى الله عليه وسلم التي تمثل ثلثي هذه الأمة الواحدة.

مع أطهر ماء خلق على الأرض حيث سيكون بين يأجوج ومأجوج والماء شأنُ وأي شأن.

فاتضح مضمون العلاقة بين السورة والعلامة في إطار الأمة البشرية التي ستمثل بالنسبة ليأجوج ومأجوج واحداً في الألف..

الأمة المسلمة.. أصحاب الجنة.. أمة الأنبياء الواحدة..

في مقابل:

الأمة الكافرة.. أصحاب النار.. أمة يأجوج ومأجوج وراء الردم والكافرين من البشر فوق الأرض.

ودون استثناء آية واحدة من سورة تتحدد عناصر العلاقة بين السورة والعلامة في عدة مساءل:

- عناصر امتداد الأمة الكافرة. بما في ذلك أخطر قضايا الامتداد البشري الباطل.

1- انظر في ابن كثير 5/367 – ط الشعب.

وبذلك يتم تفسير الوجود الجاهلي وامتداده، ثم يكون تفسير الأمة المسلمة الممتدة في مقابل الوجود الجاهلي ليكون:

- النبوة واستقرار الوحي وثباته في الواقع البشري.
- وحدة النبوة المستقرة الثابتة.
- والمحققة للصواب والكثرة الصحيحة من خلال اجتماع:

الحكم.. والإمامة في الدين.. والعلم.. والبركة.. مع النبوة

ثم تفسير البقاء الكوني بالحفظ.. وبإنشاء الأمة بعد الأمة.

ثم تفسير الطبيعة الكونية الموافقة للنبوة.. باعتبار خلق السموات بالحق.. واثر الملائكة.. والآيات الكونية..

وفي النهاية تكون المناسبات اللفظية في السورة المؤكَّدة للعلاقة بين العلامة والسورة وكلماتها وألفاظها المحددة.

عناصر الامتداد البشري الكافر:

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرِضُونَ 1 مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ 2 لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ 3 قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ 4 بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ 5 ﴾ [الأنبياء].

إن مقدمة السورة تجمع عناصر الامتداد البشري الكافر، ومن مجموع آيات المقدمة تتحدد هذه العناصر لتكون الغفلة والإعراض واللعب واللهو.

ثم الانشغال باتهام الأنبياء..

بالسحر، بأضغاث الأحلام، بالافتراء، بالشعر.

يضاف إلى هذه العناصر ما ذكرته الآيات من خلال السورة كلها مثل الإعراض ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: 24].

والاستهزاء: ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إلا هُزُوًا ﴾

[الأنبياء: 36].

﴿ وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون ﴾ [الأنبياء: 41].

ولكن هذه المقدمة ذاتها تبدأ بما يثبت الحد النهائي لمعني المقدمة والسورة وهو اقتراب الساعة والحساب: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: 1].

ثم تأتي قضايا الامتداد البشري الكافر..

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وِلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادُ مُكْرَمُونَ ﴾[الأنبياء: 26].

وبدعة اتخاذ الرحمن ولداً جاءت كمقابل للقرآن كذكر لنا، ولمن قبلنا، كما جاءت كمقابل لمضمون كل الرسالات ﴿ لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾.

لأنها البدعة التي استحوذت على العقل البشري الكافر أكبر مدة زمنية وأكبر مساحة بشرية.

إنها البدعة الأساسية في التاريخ الجاهلي كله.

ومن هنا جاءت الآيات 26، 27، 28، 29 لتنفيها تماماً وتواجهها مواجهة كاملة.

ولأجل أن ادعاء الولد لله هو البدعة التي استوعبت في الواقع البشري الكافر أكبر مدة زمنية وأكبر مساحة أرضية، كان أتباع هذه البدعة أكبر كثرة عددية من أهل النار.

ولذلك جاء التعبير عن النار بخصوص هذه القضية بلفظ (جهنم) مثلما جاء في الآيات: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ 26 لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ 27 يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ 28 وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ 29﴾ [الأنبياء].

والتعبير عن النار بجهنم في هذه القضية دليل على كثرة أتباعها.

والتعبير بلفظ (جهنم) معناه بعيدة القاع ومنها بئر جهنام أي بعيدة القاع.

فعندما يأتي ذكر النار بلفظ (جهنم) يكون معناه كثرة الواردين.

مثل بعث النار البالغين ألف كافر مقابل واحد من المؤمنين. وارتباط لفظ جهنم بكثرة الواردين جاء فيه اجتماع الجن والإنس مثل قوله: ﴿ لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف: 18].

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنْ الجِنَّ وَالإنسِ ﴾ [الأعراف: 179].

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾

[مريم: 68].

واجتماع الكافرين مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: 140]، وغيرها من الآيات.

أما القاعدة العامة المثبتة للعلاقة بين جهنم وكثرة الواردين فهي اقتران لفظ جهنم بألفاظ (مأوى)، و (مثوى) و (كفى)، (جمعياً)، (لأملان)،

(موفوراً).

ولكن التصور عن جهنم أنه لو ألقي حجر من سفحها لم ينزل في قاعها إلا بعد سبعين خريفاً كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، فهي واسعة لا تملؤها أجساد الكفار من غير يأجوج ومأجوج.

ولكن تخيل هذا التصور لا يتم إلى من خلال حقيقتين:

أولاً: أن يأجوج بالعدد المعروف وبوصف أجسادهم بعد موتهم قد يساعد علي تخيل هذا التصور ؛ إذ ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في أجساد يأجوج ومأجوج:

أنها تملأ الأرض نتناً تأكلها البهائم وتزيد لحومها – أي البهائم – بأكل أجسادها.

فكيف إذا أضيف إلى ذلك أن حجم أهل النار – سواء من يأجوج ومأجوج أو كفار أهل الأرض – لن يكون بالصورة التي هم عليها، إذ يقول النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك: " إن ضرس الكافر يكون مثل جبل أُحُد ".

استقرار الوحي وثباته في الواقع البشري:

وقول الله عز وجل: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء: 34].

ومعنى الآية أن موت النبي صلى الله عليه وسلم دليل على موت كل البشر ؛ ذلك لأن موت النبي صلى الله عليه وسلم دليل على الساعة.

ومن هنا كان الربط بين موت النبي صلى الله عليه وسلم وعلامات الساعة حتى ذكر هذا الموت في العلامات الست التي تسبق الساعة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اعدد ستاً بين يدي الساعة موتي ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاً الغنم ثم استفاضة المال حتى يعطي الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون فيأتوكم تحت ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً "[273].

﴿6 وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ 7 وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ 8 ﴾ [الأنبياء: 7، 8].

ولكن موت الأنبياء لا يعني ذهاب الوحي، ذلك أن موت الأنبياء كان بعد تمام رسالتهم، ومن أجل تمام الرسالة كانت حقيقة نجاة الأنبياء.

فالوحي والنبوة ممتدان مستقران في الواقع البشري..

ولكن نجاة الأنبياء – كما وردت في السورة – كانت قضاءً إلهياً وحتمياً واضحاً، له معنى ضخم هو نجاة هؤلاء الأنبياء باعتبارهم منابع لهذا الامتداد.

ابتداءً من سيدنا إبراهيم:(قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ 68 قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ 69 وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ 70 ﴾ [الأنبياء].

وإسماعيل الذي أمر إبراهيم بذبحه ثم فداه الله بذبح عظيم ولذلك جاء ذكر إسماعيل في سورة الأنبياء: ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنُ

الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنبياء: 85]. لأنه قال لأبيه عندما أخبره أبوه بأمر الرؤية:

﴿ يَا بُنَيَّ أَنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءِ اللهُ مِنْ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات: 102].

فكانت نجاة إسماعيل أصلاً بشرياً ممتداً حتى بلغ بنسله أبو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي نجاه الله هو الآخر من الذبح عندما نذر عبد المطلب أحد أبنائه للذبح ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: " أنا ابن الذبيحين " سيدنا إسماعيل وأبو النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن أهم الحقائق العامة في سورة الأنبياء:

وحدة الأنبياء:

ووحدة الأمة المؤمنة من خلال وحدة الأنبياء. هي الحقيقة التي اعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم جميع المؤمنين من الأمم السابقة من الأمة الأخيرة وهي أمة النبي صلى الله عليه وسلم فقال من يأجوج ومأجوج ألف ومنكم واحد أي من المؤمنين أول الزمان حتى آخره.

---

1 - تقدم تخريجه.

وبذلك أصبحت يأجوج ومأجوج هي المقابل العددي للأمة الواحدة وذلك بنسبة **1000**: **1**

ثم تتوالى الآيات لإثبات مفهوم الأمة الواحدة.

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ **24** ﴾ [الأنبياء: **24**].

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ **25** ﴾[الأنبياء: **25**].

والآية الجامعة لهذا المعنى هي:

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: **92**].

ولقد وضحت هذه الحقيقة من خلال عدة مفاهيم متفرقة في السورة:

1. الوحدة من حيث الدعوة.
2. وبعد وحدة الأنبياء تأتي الحقيقة الثابتة التي لا تنقطع في وحدة الأمة المؤمنة، وهي القرآن..

فمن أجل الأمم البشرية الممتدة كان القرآن المنزل بالتوحيد هو نفس مضمون الرسالات السابقة ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ **24** وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ **25** ﴾

[الأنبياء: **24**، **25**].

أخلاق الامتداد:

وكما كان الماء سبباً كونياً للامتداد، ربط الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين الأسباب الأخلاقية لهذا الامتداد وذلك في حديث أبي هريرة الذي أورده ابن كثير تفسيراً لآية: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء: **32**].

عن أبي ميمونة عن أبي هريرة قال: قلت يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني فأنبئني عن كل شيء خلق من ماء. قال: قلت: أنبئني عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة قال: " أفش السلام وأطعم الطعام وصِلِ الأرحام وقم الليل والناس نيام ثم ادخل الجنة بسلام " [274].

وبذلك يربط الرسول بين الإجابتين، بين منشأ الوجود البشري وهو الماء وامتداد هذا الوجود بالأخلاق.

ولعل ما يؤكد على معنى أخلاق الامتداد الوارد في الحديث هو صلة الرحم التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في عمره فليصل رحمه " [275].

حيث جاءت صلة الرحم سبباً لزيادة الرزق والعمر، وهي أسباب الامتداد الأساسية لحياة الناس.

1- أخرجه أحمد (295/2).

2- أخرجه البخاري في ((الأدب)) / باب: من بسط له الرزق (5986/429/10). ومسلم في ((البر والصلة)) / باب: صلة الرحم (114/16/6. النووي).

إن منهجية ترتيب الأنبياء قائمة على أساس مفهوم الامتداد البشري الصحيح ومن هنا بدأ الترتيب بموسى وهارون باعتبار أن مرحلة موسى وهارون هي أعظم مراحل أمة بني إسرائيل.

حيث بدأها موسى بإخراج بني إسرائيل من عبودية فرعون..

وأتمها هارون كأعظم أمة عددية بعد أمة النبي صلى الله عليه وسلم..

فكان موسى وهارون هما الصحة والامتداد..

- **ثم كان إبراهيم الذي حقق – وحده – مفهوم الأمة بوجوده على التوحيد: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً للهِ حَنِيفاً ولَمْ يَكُ مِنَ المُشْرِكِينَ ﴾**
- **[النحل: 120].**
- **ثم كان إسحاق ويعقوب اللذان يمثلان الامتداد البشري لإبراهيم.**
- **ثم كان لوطاً الذي حارب داء الانقطاع البشري.. داء الشذوذ.**
- **ثم كان دواود وسليمان اللذان يمثلان تمام الصورة البشرية.. بصفة شخصية وهما يمثلان مرحلة الأمة الصحيحة الممكنة.**
- **ثم أيوب الذي جاء من اجتماع نسل إسحاق وإسماعيل، فأصبح نقطة اجتماع نسل إبراهيم ؛ ليتحقق امتداد جديد للأمة الواحدة.**
- **ثم كان إسماعيل ؛ ليكون بداية امتداد أساسي لنسل إبراهيم حيث كان إسحاق وإسماعيل.**

ثم ليكون بداية نسل محمد صلى الله عليه وسلم

- **ثم كان إدريس ليمثل البقاء البشري المرتفع حتى يوم القيامة.**
- **ثم كان ذو الكفل، نسل أيوب الذي كان لا يغضب ليضمن العدل في الحكم بين الناس..**

فأصبح يمثل مهمة القضاء بين الناس وهو محصلة الأساسيات الثلاثة لبقاء الأمة: الكتاب (الشريعة والسلطة والحق).

- **ثم يونس الذي يمثل غلبة القضاء الإلهي بإنشاء أمة الامتداد الصحيح. بصورة تفوق الأسباب وتعلو عليها. وذلك حينما يذهب يونس مغاضِباً ليعود وقد آمن قومه كلهم أجمعون.**
- **ثم كان زكريا ليرث آل يعقوب ثم يدعو الله من أجل امتداد الحق وميراث النبوة بيحيى الذي يرث زكريا الوارث لنبوة بني إسرائيل.**
- **مريم وعيسى ليجتمعا مع أمة النبي صلى الله عليه وسلم الذي يمثل حلقة الوصل بين بني إسرائيل وأمة محمد صلى الله عليه وسلم حيث سيكون من الأمة الأولى ثم يعود للأمة الثانية في آخر الزمان.**
- **محمد صلى الله عليه وسلم، وهو اللبنة التي تم بها بناء الأمة الواحدة الممتدة امتداداً صحيحاً حتى قيام الساعة.**

الكثرة:

والملاحظة الأساسية لترتيب الأنبياء في السورة هي إثبات الكثرة، لأن الأمة المقابلة ليأجوج ومأجوج هي الأمة الممتدة الملحقة لأكبر نسبة عددية ممكنة، وقد أظهرت الآيات قصد الكثرة.

وهذا يونس عليه السلام يترك قومه ويذهب مغاضباً ليعود فيجد قومه وقد آمنوا كلهم أجمعون.. ولما كان الامتداد امتداداً عددياً.. فقد قال الله في قوم يونس: ﴿ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات: 147].

وقد وضح هذا المعنى في ذكر الأنبياء في السورة وحيث عدَّد لنا القرآن قوم يونس الذين آمنوا بأنهم: ﴿ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ والله يعلم عددهم فرداً:

﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95) ﴾

[مريم].

ولكن كلمة (أو يزيدون) هي التي تعطي دلالة العدد في إثبات معني الامتداد.

وكذلك عندما يذكر القرآن في سورة الأنبياء مضاعفة أهل (أيوب).. في قوله سبحانه: ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ﴾ [الأنبياء: 84]. يتضاعف معني المضاعفة على معنى الزيادة.

وبنفس القاعدة تذكر الآيات في إبراهيم الخليل ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ [الأنبياء: 72]. حيث جاء في تفسيرها

فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب.

ويوازي معنى العدد في تحقيق الكثرة.. معنى التمام..

وهو ما أكدته قصة زكريا.. الذي دعا بأن يرزقه الله الولد ؛ ليكون تمام نسل يعقوب.. في النبوة.

وهذه علة قول زكريا في الدعاء:(يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا 6 ﴾ [مريم: 6].

الحفظ الكوني العام:

وكما كانت بعثة الأنبياء ووحدة رسالتهم أساساً في الامتداد البشري

الصحيح، فإن هذا الامتداد يتطلب حفظاً كونياً.. تبقى به الأمم حتى قيام

الساعة.

ومما لا شك فيه أن الامتداد يقتضي الحفظ ؛ ولهذا كانت حقيقة الحفظ في سورة الأنبياء كاملة.

ومما ورد في معناه..

وقول الله عز وجل: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ 22 ﴾ [الأنبياء: 22].

قول الله عز وجل: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ 31 وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ 32 وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ 33 ﴾ [الأنبياء].

وقول الله عز وجل:(قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ 42 ﴾ [الأنبياء: 42].

وقال الله في داود وسليمان: ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ 82 ﴾ [الأنبياء: 82]، وذلك بعد فضائل داود وسليمان.

غير أن أهم الحقائق القدرية التي أبقى الله بها الامتداد البشري الصحيح هو مجئ قوم آخرين بعد هلاك السابقين من الكافرين.

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ 11 ﴾ [الأنبياء:11].

وبذلك اجتمعت في السورة مقتضيات الامتداد البشري الصحيح فكانت نجاة الأنبياء من أجل الوحي وبقاء الشرائع على الرغم من موت الأنبياء، والحفظ الكوني وإنشاء الأقوام بعد الأقوام الهالكين.

ثم تأتي قضية يأجوج ومأجوج، وقد لا يبلغ العقل البشري الحكمة الكاملة من يأجوج مأجوج وبغير هذه الحكمة، فإن هناك أساساً للإيمان بهذه العلامة، وهو أن خلق السموات والأرض وما بينهما كان بالحق.

ليس هنا ك لعب، ليس هناك لهو.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴾ [الأنبياء: 16].

﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعِلِينَ ﴾

[الأنبياء:17].

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: 18].

وقصة يأجوج ومأجوج غريبة على العقول:

بشر يفسدون، فيُردم عليهم ردم حتى يفسد الذين فوق الأرض مثل فسادهم فيُخرج الله إليهم المفسدين من تحت الردم، فيقتلونهم ومهما كانت محاولة تفسير العلامة فإن المعالجة لهذه الغرابة لن تكون إلا آية: ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء: 23].

ثالثاً: سورة النمل.. والدابة

سورة النمل مجموعة من قصص الأنبياء ولكنها ترتبط كلها بآية الدابة وتمثل كل قصة جانباً أساسياً في فهم هذه العلامة.

فجاءت قصة موسى عليه السلام بمضمون مرتبط بالعصا التي ستكون مع

الدابة ؛ ذلك أن القصة بدأت بتكليم الله عز وجل لموسى عند جبل الطور.

وتجربة العصا –كما جاءت في سورة النمل – هي نفسها مضمون قصة موسى مع فرعون.

فالعصا مع موسى كانت كما كان فرعون مع موسى قبل بداية الصراع منافع وتربية، وعندما تحولت العصا إلى حية كان تحول فرعون عن موسى إلى موقف الائتمار للقتل، وكان فرار موسى من الحية كفرار موسى من فرعون.

والآن يجب أن يعود موسى إلى الحية، ويعود إلى فرعون.

والوعد عندما يعود الى الحية: ﴿ خُذْهَا ولا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى ﴾

[طه: 21].

والوعد: ﴿ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ [هود: 81].

أن تصبح الحية عصا كما كانت ويعود فرعون إلى حالته قبل الائتمار على قتل موسى وهذا ما كان بإذن الله.

لقد كان من المتصور أن يقتل فرعون موسى بمجرد أن يراه، أن يلتقمه كما تلتقم الحية فريستها التي تبحث عنها.

ولكنه يتصرف مع موسى تصرفات غير متوقعة، وليس القتل من بينها أو حتى المحاولة..

﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ [غافر – 26]، ﴿ أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ [الشعراء: 36].

يقارن بينه وبين موسى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ 50 وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ)(الزخرف50:51)

وكأنه كان مضطراً إلى هذه المقارنة، وإذا لم نفهم تجربة العصا بهذا المضمون فكيف نفهمها وأي معنى يكون لها غير هذا المعنى.

ومن أجل هذا المعنى كان الكلام الموجه إلى موسى من الله سبحانه وتعالى وهو يأمره بالرجوع إلى العصا كان الأمر إليه بصفته (من المرسلين).

﴿ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل: 10] ؛ ليكون الأمر بالرجوع إلى العصا بمقتضى الرسالة وبصفته (رسول) ؛ لأن الرجوع إلى العصا في حقيقته رجوع إلى فرعون.

والآية الأخرى التي تضمنتها قصة موسى في سورة النمل لا تبعد في مناسبتها للدابة عن الآية الأولى (العصا) وهي اليد التي ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴾ [طه: 22].

والحكمة من تعدد الآيات تقتضي أن يكون لدلالة آية اليد معنى يختلف عن دلالة آية العصا وإن كانت كلها خوارق.

وعندما ذكرت السورة أن الاثنين (العصا واليد) كانتا ضمن (تسع آيات) إلى فرعون دون ذكرها تحديداً دل ذلك على أن ذكر الاثنين تحديداً أمر مقصود.

ولقد تبين معنى المناسبة بين العصا والدابة ؛ حيث ستخرج الدابة ومعها العصا كما جاء في حديث الإمام أحمد: " ستخرج ومعها عصا موسى وخاتم سليمان " [276].

أما معنى المناسبة بين اليد والدابة فهو الارتباط بين الهداية والنور، حيث سيقوم هذا المعنى عندما أخرج موسى يده أمام فرعون.

وهو المعنى الذي سيتحقق في الدابة عندما تمسح بيدها وجه المؤمن فتجليه ويصبح كالكوكب الدري.

كما أن ذكر سليمان كابن لداود يتضمن حقيقة مهمة بالنسبة لعلامة الدابة.

إن علامة الدابة نتيجة لكفر الناس بالمرسلين وآيات المرسلين ؛ لذا كانت العقوبة على هذا الكفر هي النزول بمستوى البشر عن أن يكونوا أهلاً للمخاطبة بطريق المرسلين.

1- راجع علامة الدابة.

ولكن الآيات لابد أن تبقى ؛ لأنها حجة الله التي يجب أن تكون قائمة على العباد حتى آخر الزمان، فجاءت الدابة لتجمع هذه الآيات بصيغة تتناسب مع ما وصل إليه الناس من الكفر وعلى ذلك تكون الدابة مرتبطة في دلالتها بمقام الإنسان عند الله عز وجل.

ومن هنا كان من الضروري إثبات المقام الأصلي للإنسان ؛ لأن إثبات هذا المقام هو نفسه الذي يُثبت معنى الانحطاط الذي بلغه هذا الإنسان حتى بلغ أن يخاطب بطريق الدابة.

وعندما يُذكر مقام الإنسان يُذكر داود كنموذج لهذا المقام.. بدليل حديث الوبيص، الذي طلب فيه آدم من الله أن يجعل له من عمره ستون عاماً

أو أربعين...

وامتداداً لمفهوم المقام الإنساني الذي يمثله الإنسان النموذج (داود) يأتي ذكر سليمان ليشاركه هذا المقام: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمَاً وَقَالا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل: 15].

ولكن إثبات مقام سليمان يأتي بما يتناسب بصورة جوهرية مع علامة الدابة ؛

إذ يأتي هذا الإثبات من خلال السلطان الذي كان لسليمان من عند الله عز وجل:

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنْ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾

[النمل: 17].

هذا السلطان الذي كان متعلقاً بالخاتم الذي كان معه كما ورد في تفسير

قول الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ۚ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [ص: 34]. وهو الخاتم الذي سيكون مع الدابة كما ورد في حديث الإمام أحمد: " ستخرج ومعها عصا موسى وخاتم سليمان " [277].

ولكن كفر الناس المتسبب في إخراج الدابة.. ﴿ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُون ﴾ [النمل: 82]. لا يؤثر في الأبعاد الأصلية للقضية.

مكانة الإنسان محفوظة (ذكر داود وسليمان هي المعالجة المباشرة لهذا الأثر).

مكانة الأنبياء محفوظة:(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ 59 ﴾ [النمل: 59].

الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله لا تزال قائمة، واقرأ الآيات من

[60: 66]: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ 60 أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ 61 أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ 62 أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ 63 أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ 64 قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ

1- تقدم تخريجه.

يُبْعَثُونَ 65 بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمِونَ 66 ﴾. ثم اقرأ آخر السورة: ﴿ وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: 93].

إن علامة الدابة تعني في جوهرها قضية اليقين ؛ لأن الدابة ستخرج:

﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ ﴾ ﴿ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل: 82].

ولذا أخذت قضية اليقين قدراً كبيراً من آيات سورة النمل.

وكان أول ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْماً وَعُلُوَّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمفْسِدِينَ ﴾ [النمل: 14].

واجتماع الجحود والاستيقان في قلب واحد ووقت واحد سؤال يجب الإجابة عليه.

أن الجحود ليس انتفاء معرفة القلب ولكنه مخالفة الجوارح لمقتضى معرفة

القلب.

وبذلك تكون معرفة القلب هي استيفاء النفس.

ولعل هذه الآية بتفسيرها تمثل الأساس في قضية اليقين الواردة في السورة. ويأتي الهدهد ليؤكد أن اليقين أساس الخطاب.

فيقول لسليمان: ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل: 22].

ثم يشارك سليمان في تفسير اليقين بقدر الله عز وجل.. فيطلب عرش ملكة سبأ قبل أن يأتوه مسلمين وكأن إتيانهم له مسلمين أمر لا نقاش فيه ولا تساؤل حوله.

ثم تكون الآية الأخيرة في السورة: ﴿ وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: 93]. وهذا هو تمام اليقين.. أن تعرف آيات رب العالمين.

وفي إطار قضية اليقين تناقش السورة مسألة غيب الأرض ؛ لأن الدابة ستخرج من الأرض بإذن الله سبحانه وتعالى.

وفي مناقشة السورة مسألة غيب الأرض.

يأتي قول الهدهد: ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [النمل: 25] ؛ لأن الخبء هو الشيء المخبوء الذي لا يراه أحد.

وقد ذكر الهدهد هذا المعنى الإلهي من خلال واقعه ؛ حيث إن خبرته الخاصة أنه يرى الدودة من تحت الطين.

وارتباط ذكر الهدهد لفعل الله إخراج الخبء في السموات والأرض بخبرته الخاصة يُثبت قاعدة مهمة في قضية الأسماء والصفات..

وهي أن أسماء الله وصفاته وأفعاله المعلومة لنا ينطبق عليها حدود معرفة الهدهد بالله

فتكون هذه الأسماء والصفات والأفعال المعلومة لنا هي المناسبة لنا.

ولذلك ورد أن لله أسماء لا يعلمها إلا هو سبحانه.

وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك.. أو علمته أحد من خلقك.. أو استأثرت به في علم الغيب عندك.. أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور بصري وجلاء همي وغمي.. ".

ولعل أخطر الجوانب في علامة الدابة هي أنها تنطق وتكلم الناس..

إن الرسالة هي خطاب الله للإنسان، وأعلى درجات المخاطبة الكلام،

ومن هنا كان فضل موسى على الرسل وهو كلام الله له فوق الجبل:

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ ورَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ [البقرة: 253].

ومن الفضل الكلام على الرغم من أن موسى كان لا يستطيع الكلام، حتى أنه طلب أن يكون معه هارون: ﴿ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً.... ﴾.

وعندما يكون الفضل في كلام الله للأنبياء نفهم معنى الحرمان من هذا الفضل عندما يكون المتكلم مع الناس دابة من الأرض.

ولقد كان لخطورة هذا الجانب أثر في تفسير: (تكلم الناس) ؛ حيث قيل:

(تجرح الناس).

ولكن الحقيقة الواردة في التفسير الأقوى والأرجح هي أن الدابة تكلم الناس بكلام يفهمونه ولأجل خطورة نطق الدابة كانت مناقشة سورة النمل لظاهرة النطق بصفة أساسية رائعة. فالنطق – كما جاء في السورة – ظاهرة كونية

عامة..

وهذا سليمان يقرر فضل الله عليه في تعلم منطق الطير:(15 وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ 16 وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ 17 حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ 18 فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ19﴾

[النمل 16: 19].

ثم تأتي قصة ملكة سبأ متضمنة الحوار الطويل بين الهدهد وسليمان.

وفي الوقت الذي تثبت فيه السورة نطق الطير والنمل والهدهد فإن السورة تنفي عن الكفار بآيات الله هذه الصفة وهو أحوج ما يكون إليها.

﴿83 حَتَّى إِذَا جَاؤُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ 84 وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ 85 ﴾

النمل 84: 85].

إن الدابة دليل على علم الله بالعباد.

لعلمها المؤمن من الكافر..

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [النمل: 74].

ثم تأتي قصة ثمود.

ولهذه القصة علاقة مباشرة بالدابة وهي المكان.

مكان عذاب ثمود ومكان خروج الدابة.

أما العلاقة المباشرة الأخرى فهي المقارنة بين آية صالح وآية الدابة ؛ حيث إن الآيتين كانتا بالتوالد من الأرض.

لتأتي علاقة ثالثة وهي حقيقة بقاء آيات الله.

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: 57].

حيث إن عذاب الله لثمود كان باقياً في المكان مما جعل النبي صلى الله عليه وسلم يحذر من التواجد في هذا المكان حتى لا يصيبهم عذاب الله عز وجل.

وبذلك يتماثل بقاء آية مع بقاء آيات الله لموسى وسليمان في الدابة وهي العصا والخاتم.

وكذلك قصة قوم لوط مثل قصة قوم صالح، حيث اتفقت قصة هلاكهم مع الدابة في المكان من خلال الخرجة الثانية للدابة، حيث ستكون هي سدوم مكان قوم لوط.

وأيضاً بقاء عذابهم حتى قيام الساعة وجعْلها آية للعالمين.

إن السورة تستخدم نفس اللفظ الدال على القرب بين الساعة والدابة. والواحدة اللفظية للموقفين تدل على غرض الربط بينهما.

ففي الساعة تقول سورة النمل: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ **71** قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ **72** ﴾

[النمل: 71، 72].

﴿ رَدِفَ لَكُمْ ﴾ وراءكم وأنتم لا تدرون وقريباً منكم وأنتم لا تشعرون..

والمرادفة هي المتابعة والملازمة.. وهي نفس المعنى الوارد عن ابن عباس.

مثلما تكون الدابة ردف الرجل وهو لا يدري كما جاء في الحديث الذي رواه ابن كثير في تفسير الآية: " حتى أن الرجل ليتعوذ منها في الصلاة فتأتيه من خلفه.. لا ينجو منها هارب ".

إن العلة التي يكفر فيها الكافرون تأتي في السورة استبعاداً منها للرجوع بعد أن يكونوا تراباً..

وآية الدابة تأتي دليلاً على سهولة الأمر.

فالإنسان يُبعث – كما في الحديث – ينفض عن نفسه التراب.

وكذلك الدابة تخرج – كما في الحديث – تنفض عن نفسها التراب.

وهكذا تكون الدابة دليلاً على البعث، وبنفس الصورة الدقيقة.

الإنسان يقول الحديث في بعثه: " ينفض عن نفسه التراب ".

والدابة يقول الحديث في ظهورها: " تنفض عن نفسها التراب ".

فأجساد الناس تدفن وتبلَى وتعود.. ثم يُخرجون ينفضون عن أنفسهم التراب. وكذلك الدابة التي ستخرج من الأرض تنفض عن نفسها التراب.

كما أن الدابة دليل على جمع الله لعباده بعد بعثهم.

مثلما: " لا ينجو من الدابة هارب ". بإذن الله.

وفي ذلك يكون دليلاً على جمع الله لعباده: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ **87** ﴾

[النمل: 87].

وقول الله في الآية (ففزع من في السموات والأرض) لها علاقة مباشرة بالدابة ذلك أن الدابة سيكون لها صرخات بين الخافقين.

أي بين السماء والأرض كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الحديث 2،1)

هذه الصرخات التي سيسمعها كل من بين السماء والأرض كما سيسمع من في السموات والأرض نفخة الصعق.

سيكون سمعاً قهرياً. ذلك لأنهم لم يسمعوا من قبل للأنبياء والمرسلين ومن هنا كان قول الله قبل ذكر الدابة مباشرة في سورة النمل (أنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين , وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بأيتنا فهم مسلمون، وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بأيتنا لا يوقنون).

وهناك قاعدة قرآنية عامة، وهي ارتباط الآيات الربانية بحقيقة الفرقان، وباعتبار أن الدابة جامعة لآيات الله كانت الدابة بنفسها فرقاناً.

وتختم السورة بحقيقة الفرقان، بين الحق وأهله والباطل وأهله، فنشأت المناسبة بين علامة الدابة وختام السورة..

الدابة الجامعة للآيات..

والختام المحقق للفرقان..

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ 91 وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ 92 ﴾ [النمل: 91 – 92].

وهذه حدود المهمة.

أن أتلو القرآن.

أما الحكم فهو لله سبحانه.

﴿ وَقُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ومَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُون ﴾..

علامة الشمس وسورة التوبة

1– الشمس والدابة:

الشمس قرينة الدابة في الخروج، لأنهما قضية واحدة، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أيهما ظهرت، فالثانية في إثْرها "، أما وحدة القضية فهي حسم العمل والموقف الإنساني، فالدابة لحسم الموقف بحسب العمل، حيث تكتب على جبين المؤمن كلمة (مؤمن) بحسب عمله، وعلى جبين الكافر كلمة (كافر) بحسب عمله، أما الشمس فهي لحسم العمل حسب الموقف، فمتى خرجت الشمس من مغربها فلا عمل للإنسان، كما قال الله تعالى: ﴿ لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً ﴾ [التوبة: 158].

وبذلك تكون وحدة القضية بينهما، حتى ساوى رسول الله صلى الله عليه وسلم في احتمال ظهور إحداهما قبل الأخرى.

وما يؤكد وحدة القضية بين الدابة والشمس هو معنى الفرقان، ذلك أن الدابة فرقان بين أهل الهدى وأهل الضلال. أما الشمس فقد ذكرت مثلاً كونياً للفرقان بين الهدى نفسه والضلال نفسه، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴾

[الفرقان: 45]، لأن الآية تعالج الدليل القطعي وعلاقته بالإحساس البشري في استيعاب الإنسان للحقائق، فلو أنك نظرت إلى الظل فإنك لا تشعر بامتداده، وقد يغلب عليك هذا الظل، وأنت لا تنتبه إلى حركته الدقيقة الخفية، حتى أنك تضطر لمعرفة امتداد الظل إلى النظر إلى الشمس باعتبارها دليلاً على الظل، وهكذا يكون الموقف الصحيح في معرفة الحقائق، وهو الارتباط بالأدلة القطعية الواضحة والتجرد من الإحساسات والتوهمات.

ولعل ما يؤكد معنى الفرقان في الشمس هو أن موضوع سورة الفرقان نفسها هو الفرقان.

وعلامة الشمس دالة على حقيقة مهمة من حقائق الفعل الإلهي، وهي أن الله – عز وجل – إذا أراد إيجاد شيء أوجده لمقتضاه وبأسبابه، وإذا أراد عدمه أعدم مقتضاه وأسبابه، فلما أراد الله خلق الإنسان خلقه لعبادته، وكانت العبادة هي سبب الخلق: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: 56]، ولما أراد خلق الإنسان خلق له الأسباب المحققة لبقائه هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً [البقرة: 29]، فإذا أراد الله العدم للإنسان انعدم المقتضى " رفع الدين والعبادة "، وكتب العدم على أسباب الإيجاد والبقاء ﴿ وَإِذَا العِشَارُ

عُطِّلَتْ ﴾ [التكوير: 4]، هذا بصفة عامة تصور عام للساعة وعلامات

الساعة، ولكن التفصيل في العلامات هو التفسير المباشر لعلامة غياب الشمس والتوبة، ونقدم له بعدة أمثلة.

لما قدر الله – عز وجل – وضع الحرب وأوزارها عن البشر، يقتل الدجال، يمتد ذلك القدر إلى كل الواقع الكوني العام بأخص عناصره الدالة على العداء، فقال – صلى الله عليه وسلم –: " حتى تلعب الأطفال مع الحيات، وحتى ترعى الذئاب مع الغنم "، والعداء بين الأطفال والحيات عداء جاء بصفة خاصة، لقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – للحية: " تبلغ رأسك، وتقتلين عقبه " أي أطفاله.

وترعى الذئاب مع الغنم، لأن العداء بينهما إلى كونهما مثلين كونيين للإنسان والشيطان، ولذلك قال – صلى الله عليه وسلم –: " الشيطان ذئب

الإنسان ".

فيلاحظ أن انعدام العداء في الواقع البشري أنهاه الله في أبرز أمثلة كونية له مثلما يقدر الله قبول التوبة على الإنسان، فيقتلها في أبرز أمثلة كونية لها وهي الشمس. ولما قدر الله قتل الدجال استقدر الله إلى قتل اليهود، باعتبار أن اليهود هم أولياء الدجال من البشر.

ثم يمتد قدر قتل اليهود، وإلى الواقع الكوني العام ليقول الحجر والشجر: " يا مسلم ورائي يهودي تعالَ فاقتله، إلا شجر الغرقد، فإنه من شجر اليهود "، حيث جاء العداء – كما أخبر القرآن الكريم –:

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعَاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّي هُدَىً، فَمَنِ اتَبَعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون، حيث قال ابن عباس: اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعَاً ﴾

[البقرة: 38]: آدم وحواء وإبليس والحية.

وبذلك تتحدد العلاقة بين قدر الله والإنسان والوجود الكوني إلى طبيعة الأمر المقدر في الإنسان، فإذا رجعنا إلى علامة الشمس لتفسير العلاقة بينها وبين انقطاع التوبة فسنجد تحقيق ذلك من خلال عدة قواعد قدرية:

أولاً: علاقة التوبة بالحركة الكونية، ودلالة الشمس على هذه الحركة.

ثانياً: دلالة حركة الشمس على معنى التوبة.

ثالثاً: اقتران غياب الشمس بانقطاع التوبة.

وهي الحقيقة المقصودة نهائياً، وفي العنصر أولاً يراجع علاقة التوبة بالحركة الكونية، ودلالة الشمس على الحركة الكونية في (المضمون الإنساني)، وأما العنصر ثانياً، وهو دلالة حركة الشمس، حيث نشأت هذه الدلالة من شروق الشمس كل يوم بين قرني شيطان، ولكنها تغرب كل يوم تحت عرش الرحمن.

ومن هنا كانت بداية الشمس كل يوم شيطانية، حيث الخروج بين قرني شيطان والمشرق الذي أشار إليه الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالفتنة، حيث قال: " ألا إن الفتنة ههنا، وأشار إلى المشرق ".

من البداية الشيطانية والفتنة إلى السجود تحت عرش الرحمن في آخر سفرها اليومي كل مرة، ولعل وجود باب التوبة (كما قال) – صلى الله عليه وسلم – يناسب المباعدة بين الشر والخير بأقصى درجة مباعدة.

وأما غياب العداء في الواقع الكوني لما قرر الله دفعه من الواقع البشري، وكذلك يكون غياب الشمس كمثال كوني للتوبة بعد انقطاع التوبة عن الإنسان.

2- الشمس والتوبة:

فالتوبة حقيقة قدرية تملأ الزمان والمكان، كما تملأ الرحمة الزمان والمكان، لأن التوبة أول دلائل الرحمة، والرحمة وسعت كل شيء.

ومن هنا كان ارتباط التوبة بالزمان والمكان، ودليل ذلك مقدمة سورة الزمر: ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ العَزِيزُ الغَفَّارُ ﴾ [الزمر: 5]. فكان التعقيب على المعنى المقصود، لأن التعقيب جاء للدلالة على القدرة، لأن العزة هي تمام القدرة، والمغفرة هي تمام التوبة، ولذلك جاءت الأحاديث المثبتة لهذا الارتباط، وأهمها ارتباط المغفرة والتوبة بالليل والنهار، كما في حديث النزول، وفيه أن الله ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الخير من الليل فيقول:... الحديث.

أما الحديث الآخر فهو قول النبي – صلى الله عليه وسلم –: " إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ".

ولما كانت الشمس هي المحور الأساسي للحركة الكونية في مجالها الإنساني كان الارتباط بين الشمس وقضية التوبة.

ولذلك كان لمعنى التوبة حقيقة الإسلام كله، وهذا ما قاله الإمام ابن تيمية – رحمه الله – (الإسلام هو التوبة كلها).

حيث إن بقاء الإسلام يعني بقاء التوبة بالحركة الكونية هو التوافق الفطري بين طبيعة الكون وطبيعة الفطرة الإنسانية، وهو المعنى المأخوذ من قول الله:...

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ **30** مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ **31** مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ **32** وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ **33** ﴾ [الروم].

أي فطرهم منيبين إليه، فلو خلوا بينهم وبين فطرتهم لما عدلت عن الإنابة، وقول الله _ تعالى _:

﴿ إِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾.

أي أن انكشاف الفطرة بمس الضر يكون بالإنابة إليه، ومن هنا كان الكون تبصرة وذكرى لكل عبدٍ منيب، لأن طبيعة الإنابة والكون أقرب ما يكون في الإنسان، وذلك في قول الله – تعالى –: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (**6**) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (**7**) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ.. ﴾ [ق: **6**– **8**].

والتوافق الطبيعي بين الكون والتوبة هو – في ذاته – دليل على التوافق بين الحركة الكونية وحقيقة التوبة، لأن الكون المتوافق في طبيعته مع التوبة متوافق في حركته.

فالكون بحركته مسلم، ساجد لله، والتوبة حركة الإسلام والرجوع إلى الله، ومن هنا كان التعبير عن الارتداد بالحركة المعاكسة: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً ﴾ [النحل].

وليس عند ربك ليل ولا نهار، ولكنه الارتباط بين التوبة والزمان، ومن هنا كانت القاعدة العامة في العلاقة بين العبادات ومغفرة الذنوب هي العودة الزمنية لهذه العبادات وأهم ذلك:

قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم –:

" رمضان إلى رمضان ".

" الحج إلى الحج ".

" والجمعة إلى الجمعة ".

" والصلاة إلى الصلاة ".

وبذلك أصبح الزمن هو أول العلاقة بين الكون والتوبة.

ومن العبارة الأخيرة نلاحظ أنه كما كان الزمن الكوني زمناً للتوبة، كان الزمن التعبدي زمناً للتوبة أيضاً، لأن الأعمال التي يعود بها الزمن كلها عبادات.

ومن هنا كانت العبادة أصلاً في التوافق بين الكون والتوبة لأن العبادة هي غاية الحب مع مطلق الطاعة، وهو المعنى المقابل للنفاق لأن النفاق هو كراهية ما

أنزل الله، ولذلك جاءت نتيجة كراهية ما أنزل الله هي النتيجة المقابلة للتوبة، وهي إحباط العمل، كما قال – سبحانه –:﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد: 9] وفي التهجد يتحقق غاية المحبة مع مطلق الطاعة.

ومن هنا كان المتهجدون هم عباد الله في الزمان كله، وهم المتوافقون مع الإسلام ليلاً ونهاراً، ولذلك يذكر الحديث كيف هؤلاء المتهجدين هم المدركين لعلامة الساعة.

باب التوبة:

والأحاديث الواردة – في باب التوبة – نادرة العدد، ولكنها تعطي لباب التوبة قيمة عظيمة، ولكي نفهم هذه القيمة يجب أن نفهم معنى أبواب السماء:

فمن أبواب السماء ما يفتح في أوقاتٍ محددة: مثل فتح أبواب الرحمة في رمضان [278].

ومن أبواب السماء ما يكون مفتوحاً، ولكن لا يرتفع إليه العمل، مثل

حديث: " أَخِّرْهما حتى يصطلحا " [279].

ومن أبواب السماء ما يفتح لإنسانٍ دون آخر، مثل أبواب الرحمة التي

سيكتبها الله للمتقين.

ولكن باب التوبة هو الباب المفتوح دائماً لكل الخلق، ويعمهم نفعه دون استثناء، ولا يمنع عن الوصول إليه شيء حتى قيام الساعة. وكذلك يتميز باب التوبة عن هذه الأبواب جميعها بموقعه في الغرب، كما قال – صلى الله عليه

وسلم –: " إن بالمغرب باباً مفتوحاً للتوبة، مسيرته سبعون سنة، لا يُغلق حتى تطلع الشمس من نحوه " [280]، وذكر القرطبي في تفسير الحديث: أن الباب قِبَل الشام

خلقه الله – تعالى – يوم خلق السموات والأرض مفتوحاً.

وهذا الموقع الغربي من باب التوبة يعني التقابل التام بين التوبة وبين الفتنة

والشر ؛ حيث قال – صلى الله عليه وسلم – وهو مستقبل المشرق: " ألا إن الفتنة ههنا، من حيث يطلع قرن الشيطان أو قرن الشمس " [281].

وباب التوبة دليل طبيعة التوبة في الوجود الكوني من الناحية المكانية، كما كان للتوبة اعتبارٌ من الناحية الزمنية وهو آخر الزمان.. ذلك أن باب التوبة مخلوقٌ يوم خلق الله السماء والأرض بمسافة تقدر بمسيرة سبعين عاماً، وبذلك يثبت أن التوبة جزء من طبيعة وبناء هذا الكون، بل إن هناك حديثاً

1- أخرجه النسائي في " الكبرى " في الصيام / باب: فضل شهر رمضان (ح 2409) بهذا اللفظ من حديث أبي هريرة وأصله في الصحيحين بلفظ " أبواب الجنة ".

2- [صحيح] أخرجه مسلم في باب النهي عن الشحناء والتهاجر (ح 2565)، وأبو داود (4916)، والترمذي (2023)، وابن ماجة (ح 1740) من حديث أبي هريرة.

1- أخرجه الترمذي في الوضوء: باب: المسح على الخفين (1 / 159 / ح 96)، والنسائي في الطهارة: باب التوقيت في المسح على الخفين (1 / 1/ 83 – السيوطي)، وأحمد في " مسنده " (4 / 239) من زر بن

حبيش، على صفوان بن عسال.

2- تقدم تخريجه.

يثبت أن للتوبة فاعلية تغيير طبيعة وبناء هذا الكون، وهو حديث الرجل الذي قتل مائة نفس، ذلك أن الحديث يثبت أن الله – عز وجل – قد طوى لهذا الرجل الأرض شبراً.

3- الشمس وسورة التوبة:

وسورة التوبة تناقش – في جوهرها – قضية التوبة، ولكن مناقشة سورة التوبة لقضية التوبة جاءت بصورة أساسية بحسب تصور علامة الشمس.

فبدأت السورة بالبراءة من المشركين باعتبارهم نجساً، لا يحل لهم أن يقربوا المسجد الحرام، ولكن ذلك كان في فتح مكة، ولهذا الارتباط الزمني قيمة

عظمى ؛ ذلك أنه في فتح مكة أعلن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بيان انضباط الزمان وعودته لما كان عليه منذ خلق الله السموات والأرض.

وباعتبار ارتباط التوبة بالزمان منذ خلق الزمان بخلق السموات والأرض، حيث خلق باب التوبة يوم خلق الله السموات والأرض، كما ذكر الحديث.. باعتبار ضبط الزمان وعودته لهيئته، حيث يذكر الحديث نصاً أن باب التوبة خُلق يوم خلق الله السموات والأرض.

وسورة التوبة تفسر في الابتداء معنى التوبة، ولكن من خلال باب التوبة وعلامة الشمس، لأن معنى التوبة من خلال باب التوبة لها معنى إنساني كوني، يعني أن التوبة ضرورة إنسانية طبيعية لا يستثنى منها أحد، ولذلك جاء في السورة أن عدة الشهور عند الله اثني عشر شهراً يوم خلق الله السموات والأرض، ولذلك أوردت سورة التوبة أصنافاً من الناس يتصور ألا تبلغ هذا المقام مهما كان ولن ينالها، لأن الأعمال المنسوبة إليهم هي التي تجعل الظن يغلب لهذا التصوير ومن هذه الأصناف:

المشركين، وفيهم: ﴿ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ فَإِن تَابُوا ﴾ [التوبة: 5]، وفي أعمالهم جاء قول الله: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ 8﴾ [التوبة: 8]،

﴿ اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ 9 لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ 10﴾ [التوبة: 9-11]، ثم تتوالى الآيات، فتنسب إليهم نكث الإيمان والطعن في الدين والهمّ بإخراج الرسول – صلى الله عليه وسلم – ثم تقول

الآيات: ﴿ وَيَتُوبُ اللّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾، وكذلك الكافرين والمنافقين في الآية: [73، 74]، وفي المقابل يرد الله – سبحانه – في سورة التوبة على مَن يتصور تجاوز مقام التوبة وعلى رأسهم النبي – صلى الله عليه وسلم – والمهاجرين والأنصار: ﴿ لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ 117 ﴾ [الآية: 117].

ليحقق هؤلاء الكرام التوبة كضرورة إنسانية يحسم النبي – صلى الله عليه وسلم – معناها قائلاً:

" توبوا إلى الله فإني أتوب إليه في اليوم مائة أو سبعين

مرة.. ".

(أ) التوبة والعهد:

ثم إن الآيات بعد ذلك تناقش كل جوانب قضية التوبة، فتناقش الآية علاقة التوبة بمعنى العهد، لأن التوبة والعهد هما الإسلام، فالعبد الذي يفي بعهده مع البشر هو الذي يفي بعهده مع الله، والذي يفي بعهده مع الله هو التائب

المستغفر، كما قال – صلى الله عليه وسلم –: " اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، وأبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ".

وما يؤكد العلاقة بين التوبة والعهد هو أن التوبة هي الرجوع إلى عهد الله الوارد في قوله – سبحانه –: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المُبْطِلُونَ (173) ﴾ [الأعراف].

ولذلك جاء في الآية التي بعدها: ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ

يَرْجِعُونَ ﴾، أما الدليل على العلاقة بين العهد والتوبة من أقوال السلف فهو تعريف الإمام ابن القيم في (مدارج السالكين): (التوبة هي الرجوع إلى الحق وفاءً كما رجع إليه عهداً، أي مثل الرجوع إلى الله حسب الميثاق، فطرياً وبالاضطرار، أي أن التوبة هي الرجوع إلى الله بالعمل والاختيار).

ويحدد ابن القيم في كتاب (مدارج السالكين) معنى التوبة كحركة توجه

إلى الله – عز وجل – فيقول في معنى التوبة: (محبته والخضوع إليه والإقبال عليه، والإعراض عمن سواه).

وفي ذلك معنى التوجه.

ويقول في معنى التوبة:

(المسرع إلى مرضاته، الراجع إليه في كل وقت، المتقدم إلى محابه).

(ب) التوبة والجهاد والهجرة:

كما جاء في السورة ذكر القضايا الأساسية المتعلقة بالحركة الكونية والتوبة في وقتٍ واحد.. ويمكن صياغة هذه القواعد في قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: " الهجرة باقية ما بقيَ الجهاد، والجهاد باقٍ ما بقيت التوبة، والتوبة باقية حتى تشرق الشمس من مغربها "، فالهجرة – وهي الحركة البشرية المكانية – هي في نفس الوقت لها معنى التوبة، كما قال – صلى الله عليه وسلم –:

" المهاجر مَن هجر ما نهى الله عنه "، ولكن للهجرة معنىً للتوبة آخر، لا يقل أهمية عن المعنى الأول، وهو أن اتساع معنى التوبة للمكان كما اتسعت للزمان، يعني أن التوبة قد تكون مقدرة في مكان بعيد عن العبد، فعليه أن يسعى إلى ذلك المكان ليعبد الله، ولا يشرك به شيئاً، وهذا معنى قوله – سبحانه –:

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾[العنكبوت: 56] ليدل مجموع النصوص على أن معنى العبادة يعم الأرض، كما يعمها معنى التوبة.

ولعل هذا الارتباط هو الحكمة التي قادت العالم إلى أن ينصح قاتل المائة نفس إلى أن يهاجر إلى بلدٍ آخر، وإثباتاً لدقة هذا الارتباط كان لبقية الحديث الذي أثبت فيه رسول الله – صلى الله عليه

وسلم – أن الله قد طوى لهذا الرجل الأرض شبراً ليكون أقرب إلى أرض التوبة، لتقبض روحه ملائكة الرحمة.

وبقاء الهجرة يعني وجود بقاع على الأرض يشغلها الكافرون، وهذا هو المعنى الموجب للجهاد، لأن الجهاد باقٍ ما بقي العداء، والعداء باقٍ ما بقي الكفر، ومن هنا كانت الهجرة باقية ما بقي الجهاد.

(ج) التوبة والنفاق:

ومن هنا أيضاً كانت المناقشة المستفيضة في سورة التوبة لقضية الجهاد، ومما لا شك فيه أن قضية الجهاد وقضية الهجرة حركتان في اتجاه التوبة، متفقتان في هذا الاتجاه مع الحركة الكونية، وهي حركة العبادة لله – تبارك وتعالى – ولذلك جاء في السورة ذكر المنافقين، الذين يعاكسون تلك الحركة، وهذا الاتجاه في باطنهم، ويتوافقون معها في ظاهرهم، لذا شغلت حركة النفاق آيات كثيرة من سورة التوبة، حتى أن موقف النفاق يكتمل ظهوراً ووضوحاً على الصراط من خلال تواجدهم الظاهر مع المؤمنين فوق الصراط، وذلك باعتبار ظاهرهم الذي هم

عليه، ثم انكشاف باطنهم فوق هذا الصراط، وهذا تفسير قول الله – تبارك وتعالى –: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العَذَابُ ﴾ [الحديد: **13**].

وسبحان الله القدير، إذ كانت حركة النفاق هي الحركة المضادة تضاداً كاملاً للجهاد والهجرة، ومراجعة السيرة تجعل أمامنا هذه الظاهرة أقوى ما تكون، وأخطر ما تكون، وعلى سبيل المثال حركة عبد الله بن أُبي بن سَلول، الذي عاد بثلث الجيش في إحدى غزوات النبي – صلى الله عليه وسلم –.

ولعل أبرز أمثلة التقابل والتضاد بين حركة الجهاد من ناحية، وحركة النفاق من ناحية أخرى هو نقطة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث وردت كنقطة تقابل وتعاكس بين الحركتين، كما في قوله – سبحانه وتعالى – في المنافقين:

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ **67** ﴾ [التوبة: **67**] وقال – تعالى – في المؤمنين: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ **71**﴾ [التوبة: **71**].

ومن هنا جاء النفاق كحركة مضادة للطاعة الكاملة الصحيحة: ﴿ ويَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ واللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وكَفَى بِاللّهِ وكِيلاً ﴾ [النساء: **81**].

وبعد مناقشة السورة لظاهرة النفاق باعتبارها حركة معاكسة للجهاد والهجرة تناقش السورة ظاهرة النفاق باعتبارها الحركة المعاكسة للتوبة، وذلك من خلال قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي تمثل الحركتين التوبة والنفاق، وذلك كما جاء في السورة عن توبة التائبين باعتبارها أولى صفات الإيمان: ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ **112** ﴾ [التوبة: **112**].

ثم جاء عن النفاق والمنافقين قول الله – عز وجل –: ﴿ ٱلْمُنَافِقُونَ والْمُنافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المَعْرُوفِ ويَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ
نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ المُنَافِقِينَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: 67].

والفاسقون هنا تحمل معنى الخروج المطلق ليشمل الخروج عن حدود الإيمان، وأحكام الشريعة، وكذلك الخروج عن طبيعة التوبة، والوجود الكوني وحركته.

ثم تأتي العلاقة المباشرة بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلامة الشمس، كما ذكر أبو إسحاق الثعلبي [282] وغيره من المفسرين – من حديث في طول – عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم –: " إن الشمس تحبس على الناس حين تكثر المعاصي في الأرض، ويذهب المعروف، فلا يأمر به أحد، ويفشو المنكر فلا ينهى عنه أحد، مقدار ليلة تحت العرش، كلما سجدت واستأذنت ربها أن تطلع لم يجرِ إليها جواب حتى يوافيها القمر فتسجد ".

إن ارتباط التوبة بالحركة الكونية باعتبارها إلى الله رجوع إلى الله يعين أن البعد عن الله حركة عكسية.

وقد تحددت في الصورة أفعال كثيرة لها هذه الصفة العكسية ولعل أهمها:

﴿ وإِن نَكَثُوا أَيْمَانَهُم مِن بَعدِ عَهْدِهِمْ ﴾ [التوبة: 12].

﴿ ألا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ ﴾ [التوبة: 13].

وقد تكرر هذا التعبير في سور أخرى، ولكن الوحدة الموضوعية بين السور كانت قائمة بمناسبة هذا التعبير.

ومثال سورة الفتح وهي أخت سورة التوبة من الناحية الموضوعية، كان في قوله – تعالى –: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا 10 ﴾ [الفتح: 10] وفي سورة النحل: ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ والإِحسَان وإِيتَاءِ ذِي القُربَى ويَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنكَرِ والبَغْي يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُون ﴾ [النحل: 90].

﴿ وأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذا عَاهَدتُّمْ ولا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعَدَ تَوْكِيدِهَا وَقَد
جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُون ﴾ [النحل: 91].

﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً ﴾ [النحل: 92].

(د) التوبة والصدقة:

ومن هنا كانت الصلة بين التوبة والصدقة في قول الله في سورة التوبة:(أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ 104 ﴾ [التوبة: 104].

وكان الارتباط بين الصدقة والتوبة في قبول الله لهما، كما في حديث

1– وتفسيره " عرائس المجالس " مشهور بجمع الموضوعات والأحاديث المكذوبة وهذا الحديث منها.

رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " خير الصدقة وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى.. ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان.. ". وفي رواية: " حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق ؟ " [283].

وارتبطت التوبة والصدقة بالقبول بالنسبة للإنسان في آخر حياته، فهو ما قبل بلوغ الروح الحلقوم أو التراقي.

ارتبطت أيضاً بالنسبة لآخر الزمان.

حتى أنه عندما يكون آخر الزمان لا تُقبل الصدقة، ويغلق باب التوبة، كما قال – صلى الله عليه وسلم –: " تصدقوا فسيأتي على الناس زمان يمشي الرجل بصدقته فلا يجد مَن يقبلها "، وقال أيضاً – صلى الله عليه وسلم –: " يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال " [284].

قال ابن حجر: (وأما فيض المال الذي يقع في زمن عيسى – عليه السلام – فسببه كثرة المال، وقلة الناس واستشعارهم بقيام الساعة).

كما أن العلاقة بين الصدقة والتوبة تمتد إلى الشمس من خلال العرش، ذلك أن سجود الشمس تحت العرش يعني بقاء باب التوبة مفتوحاً، وعندما تشرق الشمس – بعد الإذن لها بالسجود تحت العرش – يكون دعاء الملائكة:

ملَكاً يقول: اللهم أعط مُنفقاً خلفاً، وملَكاً يقول: اللهم أعطِ ممسكاً تلفاً [285].

فإذا عم الإمساك والقبض عن المنفعة للبشر جميعهم فإن هذا يعني أن يعم التلف الوجود البشري.

ومن هنا جاء في سورة التوبة المعالجة التامة لظاهرة الشح: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَهَبَ والفِضَّةَ ولا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرهُم بِعَذَابٍ أَلِيم.. ﴾

[التوبة: **34**].

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ **75** فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ **76** ﴾

[التوبة:**75** –**76**].

إن التصور الكوني عن التوبة كان أساساً في ذكر أقوى أسلوب بشري له فاعليته الكونية. وذكر العلاقة بين هذا السلوك والتوبة، ومن هنا نتبين طبيعة التجانس بين التوبة من ناحية، والكون من ناحية أخرى، لأن الصدقة حققت أكبر فاعلية في الوجود الكوني.

(هـ) التوبة والطهارة:

1– قال الترمذي في " الترغيب والترهيب " رواه البخاري ومسلم وابن ماجة والنسائي بنحوه وأبو داود إلا أنه قال: " أنت تصدق وأنت صحيح حري تأمل البقاء وتخشى الفقر ". أهـ من حديث أبي هريرة.

2– تقدم تخريجه.

3– [صحيح] أخرجه البخاري في الزكاة / باب (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى) (3 / 357 / خ 1442) ومسلم في الزكاة / باب: في المنفق والممسك (1/ 404) من حديث أبي هريرة.

ولعل اشتراط الطهارة في التائب، لأن الطهارة نظافة حسية مقرونة بنظافة العبد من الذنوب. ومن هنا كان الاغتسال عند التوبة.

ومن هنا كان الاقتران بين التوابين والمتطهرين في قوله – سبحانه – في سورة البقرة: ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَوَّابِينَ ويُحِبُ المُتَطَهِرين ﴾ [البقرة: 222].

وقول النبي – صلى الله عليه وسلم –: " اللهم اقبل توبتي واغسل حَوبتي "[286]، فشرط الطهارة متعلق بالتوبة، من ناحية أن التوبة قبول من الله للناس، لذا كان لابد أن يكون التائب طيباً، لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً[287]، كما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومن هنا كانت الطهارة من أهم قضايا العبودية، مثل تطهير المسجد الحرام من المشركين: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا المَسْجِدَ الحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِم هَذَا.. ﴾ [التوبة: 28].

(و) التوبة والفتنة:

إن الطاعة والعبادة هي المقابل الحقيقي للفتنة، أما موقف الطاعة الذي في حديث الرجل الساجد فيحدد قيمة الطاعة في مواجهة الفتنة.

إن التصنيف الذي كتب به الإمام البخاري تحدَّد على أساس حقائق كلية في هذا الدين، ولذا كان من الاعتبار في هذا التصنيف أن يكون كتاب الأحكام – أي أحكام الطاعة – بعد كتاب الفتن.

إن حركة النفاق هي الضد الكامل للطاعة، كما قال – سبحانه –:

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيرَ الَّذِي تَقُولُ فَأَعْرِضْ عَنْهُم وَعِظْهُم وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفِسِهِم قَولاً بَلِيغاً ﴾ [النساء: 81].

﴿ أَوَ لا يَرَونَ أَنَّهُمْ يُفْتَنونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَو مَرَّتَينِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُم يَذَّكَرُونَ.. ﴾ [التوبة: 126].

الجهاد والغزو.

السنة والجوع.

كذبة أو كذبتين.

حديث أنس: " لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا يزداد الناس إلا شحاً، وما من عام إلا والذي بعده شرٌ منه " سمعته من نبيكم – صلى الله عليه وسلم – [288].

﴿ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُم يَذَّكَرُونَ ﴾.

وهذا يدل على فُرَص التوبة المتاحة للناس، حتى لا تنقطع التوبة إلا بموتهم، أو قيام الساعة، وتلك ملحوظة ارتباط الفتنة من أجل التوبة: ﴿ كُلِّ عَامٍ ﴾.

إن التقابل بين الفتنة والتوبة يتحدد من خلال معنى العبادة، لأن العبادة هي غاية الحب مع مطلق الطاعة.

1- أخرجه أبو داود في الصلاة: باب الوتر (ح / 1510)، والترمذي / في الدعوات (ح / 3551)، وابن ماجة في الدعاء (ح / 3830)، وأحمد (1 / 227).

2- أخرجه مسلم في الزكاة / باب الحث على الصدقة (3 / 7)، والترمذي (ح / 2989)، وأحمد (2 / 328) من حديث أبي هريرة.

1- أخرجه ابن ماجة في " مسنده " (ح / 4039)، والحاكم في المستدرك (4 / 488).

وهذان الشرطان المبينان لمعنى العبادة هما نفسهما شرطان في معنى التوبة.

فالله – عز وجل – لا يتوب على الذين يعملون العمل بغير حب.

(ز) مقام الرسول:

والحقيقة أن الملاحظة العامة في سورة التوبة هي التركيز على ذكر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بصورة لم تحدث في أي سورة من سور القرآن الأخرى

(**26** موضعاً).

إن مقام الرسالة هو مقام التوبة والرحمة والقرب.

وهو – في الابتداء – دعوة مستجابة من دعوات إبراهيم.

ولكن الدعوة كانت عندما يرفع إبراهيم البيت.

وكانت بعد إبراهيم: ﴿ رَبَّنَا واجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ، وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ، وَتُب عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَوَّابُ الرَحِيم... ﴾.

فقد كان بناء البيت والدعاء بالتوبة مقدمة بين يدي الدعوة ببعثة النبي –

صلى الله عليه وسلم – ولذلك كان لمقام الرسالة صلة بالكعبة في الابتداء، كما كانت له صلة بالتوبة.

وأخيراً فإن أهم مقتضيات تفسير العلاقة بين حقيقة التوبة وطبيعة الحركة الكونية هو أن التوبة تملأ الزمان والمكان، لأن الكون وحركته هو كل الزمان والمكان.

وباعتبار أن الحركة الكونية بطبيعتها هي القرينة الدالة على التوبة، وباعتبار أن الشمس هي القرينة الدالة على الحركة الكونية بالنسبة للإنسان – كان معنى توقف الشمس واضحاً للدلالة على انقضاء زمن التوبة بالنسبة للإنسان.

وإذا كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يضرب لنا للأمور الاعتقادية الضخمة أمثلة كونية يسيرة، مثل اللبن الدال على الفطرة كعنصر كوني ؛ فإن النبي –

صلى الله عليه وسلم – قد ضرب لنا مثلاً للتوبة بفعل بشري، وهو السفر والرجوع منه إلى البيت ؛ فقال – صلى الله عليه وسلم –: " آيبون تائبون عابدون إلى ربنا راجعون " [289]، فكان الارتباط بين معنى الرجوع إلى البيت والرجوع إلى الله، وهو معنى التوبة.

بهذا التصور يمكن أن نفهم أن الشمس تكون أعظم مثل كوني على التوبة ؛ فهي تشرق في الصباح بين قرني شيطان، وتسجد في المساء تحت عرش الرحمن، فلا يمر يومٌ إلا بالسجود لله – تبارك وتعالى – والرجوع إليه تحت عرشه، بعد سفرها الذي يبدأ بالشروق بين قرني الشيطان.

ولهذا تمتنع هذه السجدة عن الشمس عند انقطاع التوبة: " فلا يؤذن لها بالسجود... " الحديث [290].

1- أخرجه مسلم في الحج: باب استحباب الذكر إذا ركب دابته (3 / 9 / 110، 111)، وأبو داود / باب ما يقول الرجل إذا سافر (3 / 34 / ح 2599) من حديث ابن عمر.

2- تقدم تخريجه.

إن انقطاع التوبة بغياب الشمس يعبر – في حقيقته – عن الحكمة التي تدور عليها كل أفعال الله – سبحانه وتعالى – ولعل أقرب الأفعال في مجال العلامات القريبة من هذه الحكمة هو رفع العلم بموت العلماء، لأن هذا يعني أن تنقطع أسباب الخير عند انقطاع الخير نفسه، لأن الأسباب في الخير هي من الخير نفسه، كذلك تنقطع الدلائل التي تدل على هذا الخير، ومنها القرائن التي تدل عليه كذلك باعتبارها من هذه الدلائل.

ولقد ضربنا مثلاً بالسبب، ونضرب مثلاً جامعاً للقرائن، وهو ما سيكون من قتل اليهود بعد قتل الدجال، إذ إن اليهود كانوا سبباً أصلياً في عُلو الدجال، وكانوا قرائن له عند ظهوره، ومن هنا كان قتل اليهود قدَراً مرتبطاً بالدجال.

....

كلما سجدت واستأذنت ربها تعالى من اين تطلع لم يجيء لها جواب حتى يوافيها فيسجد معها، ويستأذن من أين يطلع فلا يجاء اليهما جواب حتى يحبسا مقدار ثلاث ليال للشمس وليلتين للقمر، فلا يعرف طول تلك الليلة الا المتهجدون فى الارض وهم

يومئذ عصابة قليلة فى كل بلدة من بلاد المسلمين فاذا تم لهما مقدار ثلاث ليال ارسل

الله تعالى اليهما جبريل عليه السلام فيقول (ان الرب سبحانه وتعالى يأمركما أن ترجعا الى مغاربكما فتطلعا منه، وأنه لا ضوء لكما عندنا ولا نور). فاذا أغلق باب التوبة لم تقبل لعبد بعد ذلك توبة، ولم تنفعة بعد ذلك حسنة يعملها، الا ما كان قبل ذلك محسنا فانة يجرى عليه ما كان قبل ذلك اليوم، فذلك قولة تعالى(يوم يأتى بعض ايات ربك لا ينفع نفسها ايمانها لم تكن امنت من قبل أو كسبت فى ايمانها خير).

ثم ان الشمس والقمر يكسبان بعد ذلك الضوء والنور، ثم يطلعان على الناس ويعزبان كما كانا قبل ذلك يطلعان ويغربان).

ان الدليل القاطع على دقه التجانس بين الساعه وهلاك الكافرين هو أن اثبات كفرهم

بيوم القيامه يكون من خلال الاسم المجدد ليوم القيامه المناسب للصيغه المحدده لاهلاكهم

مثل قوله تعالى: (الحاقه ما الحاقه وما أدراك ما الحاقه) و الحاقه يوم القيامه ولكن الايات تقول: كذبت ثمود وعاد بالقارعة والقارعة هى يوم القيامه أيضا ولكن اختصاص ثمود وعاد اهلكوا بصيغه تتناسب مع اسم (القارعة).. والقارعة فى اللغة (المنازعة الشديده تنزل عليهم بأمر عظيم ولذلك قيل ليوم القيامة القارعة) ولذلك قالت الايات.. اما ثمود فأهلكوا بالطاغية. واما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية. و الطاغية: القارعة. لانها نازله شديده ضربتهم. والريح العاتية: القارعة لانها جاءت ايضا نازله شديده